الاحتجاج بالقدر

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية

خرج أحاديثه

محمد ناصر الدين الألباني

اشراف

زهير الشاويش

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة للمكتب الإسلامي
لصاحبه
زهير الشاويش

الطبعة الخامسة

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله[1] ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

---

(۱) هذه هي خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه ، ومن عادة شيخ الاسلام ابن تيمية ان يحافظ عليها في افتتاحيات كتبه ، وذلك من الأدلة الكثيرة على حبه لنبيه (ص) ، ومعرفته بسنته ، وقليل جداً من يحافظ عليها ، خاصة في العصر الحاضر ، جعلنا الله منهم .

الاحتجاج بالقدر

في قوله صلى الله عليه وسلم : « فحجَّ آدمْ موسى » لما احتج عليه بالقدر ، وبيان أن ذلك في المصائب لا في الذنوب، وان الله أمر بالصبر والتقوى ، فهذا في الصبر لا في التقوى وقال :

(فاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) [غافر : ٥٥]

فأمر بالصبر على المصائب ، والاستغفار من المعايب ، وذلك أن بني آدم اضطربوا في هذا المقام ؛ مقام تعارض الأمر والقدر وقد بسطنا الكلام على ذلك في مواضع .

والمقصود هنا أنه قد ثبت في « الصحيحين » حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« احتجَّ آدمُ وموسى فقال موسى : ياآدمُ أَنْتَ أبو البشر الذي خلقك اللهُ بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : أنت موسى الذي كلمك الله تكليماً ، وكتب لك

التوراة ، فبكم تجد فيها مكتوباً (وعصى آدم ربه فغوى) قبل أن أخلق ؟ قال : بأربعين سنة . قال : فحجّ آدم موسى[1]

وهو مروي أيضاً من طريق عمر بن الخطاب بإسناد حسن[2] .

وقد ظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر السابق على نفي الملام على الذنب ، ثم صاروا لأجل هذا الظن ثلاثة أحزاب :

١ ـ **فريق** : كذبوا بهذا الحديث كأبي علي الجبائي[3] ، وغيره ، لأنه من المعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما جاءت به الرسل . ولاريب أنه يمتنع أن يكون هذا مراد الحديث ، ويجب تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم ، بل وجميع الأنبياء ، وأتباع الأنبياء أن يجعلوا القدر حجة لمن عصى الله ورسوله .

٢ ـ **وفريق** : تأولوه بتأويلات معلومة الفساد .

---

(١) قلت : استقصى طرقه ابن أبي عاصم في «السنة» من رواية أبي هريرة وعمر ، وأبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري (رقم ١٣٧ ـ ١٦٠ بتحقيقي) .

(٢) قد خرجته في «الأحاديث الصحيحة» (١٧٠٢) .

(٣) أبو علي الجبائي : هو وابنه أبو هاشم من كبار معتزلي البصرة كانت وفاته ٣٣٠ هـ .

كقول بعضهم : إنما حجَّه لأنه كان أباه ، والابن لا يلوم أباه .

وقول بعضهم : لأن الذنب كان في شريعة ، والملام في أخرى . وقول بعضهم : لأن الملام كان بعد التوبة ..

وقول بعضهم : لأن هذا تختلف فيه دار الدنيا ودار الآخرة ..

٣ ـ وفريق ثالث : جعلوه عمدة في سقوط الملام عن المخالفين لأمر الله ورسوله ، ثم لم يمكنهم طرد ذلك ، فلابد في نفس معاشهم في الدنيا ، أن يلام من فعل مايضر نفسه وغيره ، لكن منهم من صار يحتج بهذا عند أهوائه وأغراضه ، لا عند أهواء غيره ، كما قيل في مثل هؤلاء « أنت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري » أيّ مذهب وافق هواك تمذهبت به .

فالواحد من هؤلاء إذا أذنب ، أخذ يحتج بالقدر ، ولو أذنب غيره أو ظلمه ، لم يعذره ، وهؤلاء ظالمون معتدون .

ومنهم من يقول هذا في حق أهل الحقيقة ، الذين شهدوا توحيد الربوبية ، وفنوا عما سوى الله ، فيرون أن لافاعل إلا الله ، فهؤلاء لايستحسنون حسنة ، ولايستقبحون سيئة ، فإنهم لا يرون لمخلوق فعلا ، بل لايرون فاعلا إلا الله ،

بخلاف من شهد لنفسه فعلا ، فإنه يذم ويعاقب ، وهذا قول كثير من متأخري الصوفية المدعين للحقيقة ، وقد يجعلون هذا نهاية التحقيق ، وغاية العرفان والتوحيد ، وهذا قول طائفة من أهل العلم .

قال أبو المظفر السمعاني[1] :

« وأما الكلام فيما جرى بين آدم وموسى من المحاجة في هذا الشأن ، فإنما ساغ لهما الحجاج في ذلك ، لأنهما نبيان جليلان خُصَّا بعلم الحقائق ، وأذن لهما في استكشاف السرائر ، وليس سبيل الخلق الذين أمروا بالوقوف عندما حد لهم ، والسكوت عما طوي عنهم سبيلهما وليس قوله : « فحج آدم موسى » إبطال حكم الطاعة ، ولا إسقاط العمل الواجب ، ولكن معناه : ترجيح أحد الأمرين ، وتقديم رتبة العلة على السبب ، فقد تقع الحكمة بترجيح معنى أحد الأمرين فسبيل قوله «فحج آدم موسى» هذا السبيل، وقد ظهر هذا في قصة آدم ، قال الله تعالى : (إني جَاعِلٌ في الأرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة : ٣٠]

إلى أن قال : فجاء من هذا أن آدم لم يتهيأ له أن يستديم

(١) هو أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني فقيه شافعي ، بل إمام الشافعية في عصره وسمعان بفتح السين :بطن من تميم توفي سنة ٤٨٩ .

سكنى الجنة ، إلا بأن لايقرب الشجرة لسابق القضاء المكتوب عليه في الخروج منها ، وبهذا صال على موسى عند المحاجة ، وبهذا المعنى قضي له على موسى . فقال : «فحج آدم موسى» .

قلت : ولهذا يقول الشيخ عبدالقادر قدس الله روحه : « كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ، وأنا انفتحت لي ليه روزنة [1] فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعا للقدر لاموافقا له .»

وهو رضي الله عنه ، كان يعظم الأمر والنهي ، ويوصي باتباع ذلك ، وينهى عن الاحتجاج بالقدر ، وكذلك شيخه حماد الدباس [2] ، وذلك لما رأوه في كثير من السالكين من الوقوف عند القدر المعارض للأمر والنهي ، والعبد مأمور بأن يجاهد في سبيل الله ، ويدفع ماقدر من المعاصي ، بما يقدر من الطاعة ، فهو منازع للمقدور المحظور بالمقدور المأمور لله تعالى ، وهذا هو دين الله الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وممن يشبه هؤلاء كثير من الفلاسفة ، كقول ابن

---

(١) روزنة : كوة أي فتحة .

(٢) في « فوات الوفيات » (أحمد) لاحماد .

سينا : بأنه يشهد سر القدر .

والرازي يقرر ذلك لأنه كا نجبريا محضا .

وفي الجملة ، فهذا المعنى دائر في نفوس كثير من الخاصة من أهل العلم والعبادة فضلاً عن العامة ، وهو مناقض لدين الإسلام .

ومن هؤلاء من يقول : الخضر إنما سقط عنه الملام ، لأنه كان مشاهداً لحقيقة القدر ، ومن شيوخ هؤلاء من كان يقول : « لو قتلت سبعين نبيا لما كنت مخطئا » .

ومنهم من يقول بطرد قوله بحسب الإمكان ،فيقول : كل من قدر على فعل شيء وفعله فلا ملام عليه . فإن قدّر أنه خالف غرض غيره فذلك ينازعه ، والأقوى منهما يقهر الآخر ، فأيهما أعانه القدر ، فهو المصيب باعتبار أنه غالب ، وإلا فما ثم خطأ .

ومن هؤلاء الاتحادية الذين يقولون : الوجود واحد ، ثم يقولون : بعضه أفضل من بعض ، والأفضل يستحق أن يكون ربا للمفضول ، ويقولون : إنّ فرعون كان صادقاً في قوله : (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) وهذا قول طائفة من ملاحدة المتصوفة المتفلسفة الاتحادية ، كالتلمساني[1]والقول

(١) التلمساني : شعيب بن الحسن الاندلسي من مشاهير الصوفية توفي ٥٩٤ هـ

بالاتحاد العام المسمى « وحدة الوجود » وهو قول ابن عربي[1] الطائي وصاحبه القونوي[2] وابن سبعين[3] وابن الفارض[4] . وأمثالهم . لكن لهم في المعاد والجزاء نزاع . كما أن لهم نزاعاً في أن الوجود : هل هو شيء غير الذوات أم لا ؟

وهؤلاء ضلوا من وجوه . منها جهة عدم الفرق بين الوجود الخالق والمخلوق . وأما شهود القدر فيقال :لاريب أن الله تعالى خالق كل شيء ومليكه . والقدر هو قدرة الله كما قال الإمام أحمد وهو المقدر لكل ما هو كائن ، لكن [هذا لا ينفي] حقيقة الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وأن من الأفعال ماينفع صاحبه فيحصل له به نعيم ، ومنها مايضر صاحبه فيحصل له به عذاب .

فنحن لاننكر اشتراك الجميع من جهة المشيئةوالربوبية

---

(١) ابن عربي : صاحب الفتوحات المكية المتوفى ٦٣٨ وهو أبرز من قال بوحدة الوجود .

(٢) القونوي . بضم القاف . محمد بن اسحاق من كبار تلاميذ محيي الدين بن عربي توفي بقونية عام ٦٧٣ هـ

(٣) ابن سبعين . عبد الحق بن ابراهيم من القائلين بوحدة الوجود إشبيلي الأصل توفي ٦٦٩ هـ .

(٤) ابن الفارض .عمر بن عليأشهر المتصوفين، فلسفته تتصل بوحدة الوجود توفي ٦٣٢ هـ .

وابتداء الأمور ؛ لكن نثبت فرقاً آخر من جهة الحكمة والأوامر الإلهية ونهاية الأمور ، فإن العاقبة للتقوى لا لغير المتقين ، وقد قال تعالى :

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ) : [ص : ٢٨] .

وقال تعالى : (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) [القلم : ٣٥]

وإذا كان كذلك فحقيقة الفرق أن من الأمور ماهو ملائم للانسان نافع له ، فيحصل له به اللذة ، ومنها ماهو مضاد له ضار له ، يحصل به الألم ، فرجع الفرق إلى الفرق بين اللذة والألم وأسباب هذا وهذا .

وهذا الفرق معلوم بالحس والعقل والشرع ، مجمع عليه بين الأولين والآخرين ، بل هو معلوم عند البهائم ، بل هذا موجود في جميع المخلوقات .

وإذا أثبتنا الفرق بين الحسنات والسيئات ، وهو الفرق بين الحسن والقبيح ، فالفرق يرجع إلى هذا ،والعقلاء

متفقون على أن كون بعض الأفعال ملائماً للانسان ، وبعضها منافيا له ، إذا قيل : هذا حسن ، وهذا قبيح ، فهذا الحسن والقبح مما يعلم بالعقل باتفاق العقلاء ، وتنازعوا في الحُسن والقُبح بمعنى كون الفعل سبباً للذم والعقاب : هل يعلم بالعقل أم لايعلم إلا بالشرع ؟

وكان من أسباب النزاع أنهم ظنوا أن هذا القسم مغاير للأول ، وليس هذا خارجاً عنه ، فليس في الوجود حسن إلا بمعنى الملائم ، ولا قبيح إلا بمعنى المنافي ، والمدح والثواب ملائم ، والذم والعقاب مناف ، فهذا نوع من الملائم والمنافي .

يبقى الكلام في بعض أنواع الحسن والقبيح ، لافي جميعه ولا ريب من أنواعه مالايعلم إلا بالشرع — ولكن النزاع ، فيما قبحه معلوم لعموم الخلق ، كالظلم والكذب ونحو ذلك .

والنزاع في أمور منها : هل للفعل صفة صار بهاحسناً وقبيحاً ، وأن الحسن العقلي هو كونه موافقا لمصلحةالعالم، والقبح العقلي بخلافه ، فهل في الشرع زيادة على ذلك ؟وفي أن العقاب في الدنيا والآخرة ، هل يعلم بمجرد العقل ؟ وَبَسطُ هذا له موضع آخر .

ومن الناس من أثبت قسماً ثالثاً للحسن والقبح ، وادعى الاتفاق عليه ، وهو كون الفعل صفة كمال أو صفة نقص .

وهذا القسم لم يذكره عامة المتقدمين المتكلمين في هذه المسألة . ولكن ذكره بعض المتأخرين كالرازي وأخذه عن الفلاسفة .

والتحقيق أن هذا القسم لايخالف الأول ، فإن الكمال الذي يحصل للانسان ببعض الأفعال ، هو يعود إلى الموافقة والمخالفة . وهو اللذة والألم . فالنفس تلتذ بما هو كمال لها ، وتتألم بالنقص فيعود الكمال والنقص إلى الملائم والمنافي ، وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا أن الفرق بين الأفعال الحسنة التي يحصل لصاحبها بها لذة ، وبين السيئة التي يحصل له بها ألم ، أمر حسي يعرفه جميع الحيوان ، فمن قال من المدعين للحقيقة القدرية والفناء في توحيد الربوبية والاصطلام[1] : إنه يبقى في عين الجمع بحيث لايفرق بين مايؤلم أو مايلذ ، كان هذا مما يعلم كذبه فيه إن كان يفهم مايقول ، وإلا كان ضالاً يتكلم بما لايعرف حقيقته ، وهو الغالب على من يتكلم في هذا .

(١) الاصطلام : الاستئصال .

فإن القوم قد يحصل لأحدهم هذا المشهد ، مشهد الفنـــاء في توحيد الربوبية ، فلايشهد فرقا مادام في هذا المشهد . وقد يغيب عنه الإحساس بما يوجب الفرق مدة من الزمان ، فيظن هذا الفناء مقاماً محموداً ، ويجعله إما غاية وإمالازما للسالكين . وهذا غلط ، فإن عدم الفرق بين ماينعم و [ما] يعذب أحيانا ، هو مثل عدم الفرق بين النــوم والنسيان ، والغفلة والاشتغال بشيء عن آخر ، وهو لايزيل الفــرق الثابت في نفس الأمر ، ولايزيل الإحساس به ، إذ وجدسببه .

والواحد من هؤلاء لابد أن يجوع أو يعطش فلايسوي بين الخبز والشراب ، وبين الملح الأجاج والعذب الفرات ، بل لا بد أن يفرق بينهما ، ويقول : هـــذا طيب ، وهذا ليس بطيب ، وهذا هو الفرق بـين كــل ما أمــر الله ورسوله به ونهى عنه . فانه أمر بالطيب من القول والعمل ، ونهى عن الخبيث ، وإذا عرف أن المراد بالفرق هو أن من الأمور ما ينفع ويوجب اللذة والنعيم ،ومنها مايضر ويوجب الألم والعذاب ، فبعض هذه الأمور تدرك بالحس وبعضها يدركه الناس بعقولهم لأمور الدنيا ، فيعرفون مايجلب لهم منفعة في الدنيا ، ومايجلب لهم مضرة ، وهذا من العقــل الذي ميز به الإنسان ، فإنه يدرك من عواقب الأفعال مالا يدركه الحس .

ولفظ العقل في القرآن يتضمن مايجلب به المنفعة ،وما يدفع به المضرة ، والله تعالى بعث الرسل بتكميل الفطرة فدلوهم على ماينالون به النعيم في الآخرة ، وينجون من عذاب الآخرة ، فالفرق بين المأمور والمحظور هو كالفرق بين الجنة والنار ، واللذة والألم ، والنعيم والعذاب ، ومن لم يدرك هذاالفرق ، فإن كان لسبب أزال عقله هو به معذور ، وإلا كان مطالباً بما فعله من الشر وتركه من الخير .

ولاريب أن في الناس من قد يزول عقله في بعض الأحوال ، ومن الناس من يتعاطى مايزيل العقل . كالخمر وكسماع الأصوات المطربة . فإن ذلك قد يقوى حتى يسكر أصحابها ، ويقترن بهم شياطين فيقتل بعضهم بعضا في السماع المسكر ، كما يقتل شراب الخمر بعضهم إذاسكروا . وهذا مما يعرفه كثير من أهل الأحوال .

لكن منهم من يقول : المقتول شهيد . والتحقيق أن المقتول يشبه المقتول في شرب الخمر ، فإنهم سكروا سُكْراً غير مشروع ، لكن غالبهم يظن أن هذا من أحوال أولياء الله المتقين ، فيبقى القتيل فيهم كالقتيل في الفتنة ، وليس هو كالذي تعمّد قتله ، ولا هو كالمقتول ظلماً من كل وجه .

فإن قيل : فهل هذا الفناء يزول به التكليف ؟

قيل : إنحصل للإنسان سبب يعذر فيه ، زال به عقله

الذي يميز به كان بمنزلة النائم والمغمى عليه ، والسكران سكراً لايأثم به كمن سكر قبل التحريم أو أوجرَ[1] الخمرَ ـ أو أُكْرِه على شربها ، عند الجمهور •

وأما إن كان السكر لسبب محرم فهذا فيه نزاع معروف بين العلماء ، والذين يذكرون عن أبي يزيد وغيره كلمات من الاتحاد الخاص ، ونفي الفرق ، ويعذرونه في ذلك • يقولونَ إنه غاب عقله حتى قال : « أنا الحق » ، « وسبحاني » ، « ومافي الجبة إلا الله » •

ويقولون : إن الحب إذا قوي على صاحبه وكان قلبه ضعيفاً ، يغيب بمحبوبه عن حبه ، وبوجوده عن وَجْدِهِ ، وبمذكوره عن ذِكْرِهِ ، حتى يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل •

ويحكون أن شخصاً ألقى بنفسه في الماء ، فألقى مُحِبُّهُ نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت ، فلم وقعت أنت ؟

فقال : غبت بك عني فظننت أنك أني ••!

فمثل هذه الحال التي يزول فيها تمييزه بين الرب والعبد، وبين المأمور والمحظور ، ليس علما ، ولاحقا ، بل غايته أنه نقص عقله الذي يفرق به بين هذا وهذا ، وغايته أن يعذر

(١) أوجر الخمر . الوجور هو الدواء يوضع في الفم .

لا أن يكون قوله تحقيقاً [وتوحيدا] .

وطائفة من الصوفية المدّعين للتحقيق يجعلون هذا تحقيقا وتوحيدا . كما فعله صاحب « منازل السائرين »[1]، وابن العريف[2] وغيرهما . كما أن الاتحاد العام جعله طائفة تحقيقا وتوحيداً كابن عربي الطائي .

وقد ظن طائفة أن الحلاج[3] كان من هؤلاء ثم صاروا حزبين :

حزب يقول : وقع في ذلك الفناء ، فكان معذورا في الباطن ولكن قتله واجب في الظاهر ، ويقولون : القاتل مجاهد . والمقتول شهيد .

ويحكون عن بعض الشيوخ أنه قال : عثر عثرة لو

---

(١) صاحب منازل السائرين هو الهروي من كبار الحنابلة ، وشيخ خراسان في عصره من ذرية أبي أيوب الأنصاري توفي عام ٤٨١ هـ .

(٢) ابن العريف . أحمد بن محمد الاندلسي صوفي توفي عام ٥٣٦ هـ .

(٣) الحلاج الحسين بن منصور فارسي الاصل نشأ بواسط العراق اتهم بالزندقة قتل عام ٣٠٩ هـ .

كنت في زمنه لأخذت بيده • ويجعلون حاله من جنس حال أهل الاصطلام والفناء •

وحزب ثان : وهم الذين يصوبون حال أهل الفناء في توحيد الربوبية ويقولون : هو الغاية ــ يقولون : بل الحلاج كان في غاية التحقيق والتوحيد •

ثم هؤلاء في قتله فريقان :

فريق يقول : قتل مظلوما وماكان يجوز قتله ، ويعادون الشرع وأهل الشرع لقتلهم الحلاج • ومنهم من يعادي جنس الفقهاء وأهل العلم يقولون : هم قتلوا الحلاج ، وهؤلاء من جنس الذين يقولون : لنا شريعة ولنا حقيقة تخالف الشريعة ، والذين يتكلمون بهذا الكلام لايميزون ماالمراد بلفظ الشريعة في كلام الله ورسوله وكلام سائر الناس ، ولاالمراد بلفظ الحقيقة أو الحق أو الذوق أو الوجد أو التوحيد في كلام الله ورسوله وكلام سائر الناس • بل فيهم من يظن الشرع عبارةعمايحكم به القاضي ، ومن هؤلاء من لايميز بين القاضي العالم العادل ، والقاضي الجاهل ، والقاضي الظالم ، بل ماحكم به حاكم سماه شريعة •

ولاريب أنه قد تكون الحقيقة في نفس الأمر التي يحبها

الله ورسوله خلاف ماحكم به الحاكم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« إنَّكم تَخْتَصِمُونَ إلي . ولعلَّ بعضَكم أن يكون أَلْحَنَ[1] بحجته من بعض وأقضي له على نحوٍ مما أسمع منه ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

فالحاكم يحكم بما يسمعه من البينة والإقرار ، وقد يكون للآخر حجج لم يبينها وأمثال هذا ، فالشريعة في نفس الأمر هي الأمر الباطن ، وماقضى به القاضي ينفذ ظاهراً ، وكثير من الأمور قد يكون باطنها بخلاف مايظهر لبعض الناس .

ومن هذا قصة موسى والخضر ، فإنه كان الذي فعله مصلحة وهو شريعة أمره الله بها ، ولم يكن مخالفاً لشرع الله، لكن لما لم يعرف موسى الباطن كان في الظاهر عنده أن هذا لايجوز ، فلما بيَّن له الخضر الأمور وافقه ، فلم يكن ذلك مخالفاً للشرع .

---

(١) أي أبلغ . والحديث أخرجه الشيخان وأصحاب السنن وغيرهم ، وقد خرجته في « إرواء الغليل » و «الصحيحة» (١١٦٢) .

وهذا الباب يقال فيه : قد يكون الأمر في الباطن بخلاف مايظهر وهذا صحيح ، لكن تسمية الباطن حقيقة والظاهر شريعة أمر اصطلاحي •

ومن الناس من يجعل الحقيقة هي الأمر الباطن مطلقاً ، والشريعة الأمور الظاهرة ، وهذا كما أن لفظ الإسلام إذا قرن بالإيمان أريد به الأعمال الظاهرة ، ولفظ « الإيمان » يراد به الإيمان الذي في القلب كما في حديث جبريل[1] ،

---

١ ـ يشير إلى ما رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولايعرفه منا أحد. حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يا محمد ! اخبرني عن الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الاسلام ان تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلا » قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الايمان ، قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الاحسان . قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه ، فانه يراك »

فإذا جمع بينهما فقيل : شرائع الإسلام وحقائق الإيمان ،كان هذا كلاماً صحيحا ، لكن متى أفرد أحدهما ، تناول الآخر فكل شريعة ليس لها حقيقة باطنة ، فليس صاحبها من المؤمنين حقاً ، وكل حقيقة لاتوافق الشريعة التي بعث الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم ، فصاحبها ليس بمسلم فضلا عن أن يكون من أولياء الله المتقين .

وقد يراد بلفظ الشريعة مايقوله فقهاء الشريعة باجتهادهم ، وبالحقيقة مايذوقه ويجده الصوفية بقلوبهم ، ولاريب أن كلا من هؤلاء مجتهدون ، تارة مصيبون ، وتارة مخطئون ، وليس لواحد منهما تعمد مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم إن اتفق اجتهاد الطائفتين ، وإلا فليس على واحدة ان تقلد الاخرى ، إلا أن تأتي بحجة شرعية توجب موافقتها .

فمن الناس من يظن أن الحلاج قتل باجتهاد فقهي يخالف الحقيقة الذوقية التي عليها هؤلاء . وهذا ظن كثير من الناس ، وليس كذلك ، بل الذي قتل عليه إنما هوالكفر، وقتل باتفاق الطائفتين . مثل دعواه : أنه يقدر أنيعارض القرآن بخير منه ، ودعواه أن من فاته الحج أنه يبني بيتاً يطوف به ، ويتصدق بشيء قدره . وذلك يسقط الحج

عنه •• إلى أمورٍ أخرى توجب الكفر باتفاق المسلمين الذين يشهدون أن محمداً رسول الله ، وكذا علماؤهم وعبادهم وفقهاؤهم وفقراؤهم وصوفيتهم[1] .

وفريق يقولون : قتل لأنه باح بِسِرِّ التوحيد والتحقيق الذي ماكان ينبغي أن يبوح به ، فإن هذا من الأسرار التي لايتكلم بها إلا مع خواص الناس . وهي مما تُطوى ولاتُروى ، وينشدون :

مَنْ بَاحَ بالسِّرِّ كَانَ القَتْلُ شِيمَتَه
مِنَ الرِّجَال وَلَمْ يُؤْخَذْ لَهُ ثَأرُ

أيضا : بالسِّرِّ إن باحُوا تُبَاحُ دِماؤهُم
وَكَذَا دِمَاءُ البائِحِينَ تُبَاحُ

وحقيقة قول هؤلاء يشبه قول قائل :

« إن ماقاله النصارى في المسيح حق ، وهو موجود لغيره من الأنبياء والأولياء ، لكن ما يمكن التصريح به ، لأن

---

(١) قلت : وكأنه لذلك لم يورده أبو نعيم الاصبهاني في «حلية الأولياء» على ما فيه من المخالفات في تراجم بعض رجاله !!

صاحب الشرع لم يأذن في ذلك » وكلام صاحب « منازل السائرين » وأمثاله يشير الى هذا وتوحيده الذي قال فيه :

ماوحَّدَ الوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ
إذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يُخْبِرُ عَنْ نَعْتِهِ
عَارِيَةٌ أَبْطَلَهَا الوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ
وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لاحِدُ

فإن حقيقة قول هؤلاء ان الموحد هو المرحد ، وان الناطق بالتوحيد على لسان العبد هو الحق ، وانه لا يوحده إلا نفسه ، فلايكون الموحد إلا الموحد ، ويفرقون بين قول فرعون : (أَنَا رَبُّكُم الأَعْلَى) وبين قول الحلاج : « أنا الحَقُّ » ، أو « سُبحاني » فإن فرعون قال ذلك وهو يشهد نفسه فقال عن نفسه ، وأما أهل الفناء فغابوا عن نفوسهم ، وكان الناطق على لسانهم غيرهم .

وهذا مما وقع فيه كثير من المتصوفة المتأخرين ، ولهذا رد الجنيد[1] رحمه الله على هؤلاء لما سئل عن التوحيدفقال:

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزار ابو القاسم . ولد ونشأ ببغداد ، صوفي ، عرفَ بالخزاز لأنه

« هو الفرق بين القديم والمحدث »

فبين الجنيد سيد الطائفة أن التوحيد لايتم إلا بأن يفرق بين الرب القديم والعبد المحدث ، لا كما يقوله هؤلاء الذين يجعلون هذا هو هذا . وهؤلاء أهل الاتحاد والحلول الخاص والمقيد .

وأما القائلون بالحلول والاتحاد العام المطلق ، فأولئك هم الذين يقولون : إنه بذاته في كل مكان . أو أنه وجود المخلوقات . وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الحلاج لم يكن مقيداً بصنف من هذه الأصناف ، بل كان قد قال من الأقوال التي توجب الكفر والقتل باتفاق طوائف المسلمين ، ماقد ذكر في غير هذا الموضع .

وكذلك أنكره أكثر المشايخ وذموه . كالجنيد وعمرو

كان يعمل بالخز . ضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة . وكان يقول :

من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، ولم يتفقه لا يقتدى به ، كانت وفاته ببغداد سنة ٢٩٧ .

ابن عثمان المكي[1] ، وأبي يعقوب النهر جوري[2] .

ومن التبس عليه حاله منهم ، فلم يعرف حقيقة ماقاله إلا من كان يقول بالحلول والاتحاد مطلقاً أو معينا ، فإنه يظن أن هذا كان قول الحلاج ، وينصر ذلك ، ولهذا كانت فرقة ابن سبعين وفيها من رجال الظلم جماعة انتصروا للحلاج .

وعند جماهير المشايخ الصوفية ، وأهل العلم ، أن الحلاج لم يكن من المشايخ الصالحين ، بل كان زنديقا ، لأسباب متعددة يطول عندهم وصفها ، ولم يكن من أهل الفناء في توحيد الربوبية ، بل كان قد تعلم السحر ، وكان له شياطين تخدمه إلى أمور أخرى مبسوطة في غير هذا الموضع .

وبكل حال فإن آدم لما أكل هو وحواء من الشجرة لم يكن زائل العقل ولا فانيا في شهود القدر العام ، ولا احتج على موسى بذلك ، بل قال : لم تلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن أخلق ؟ فاحتج بالقدر السابق ، لا بعدم تمييزه بين المأمور والمحظور .

---

(١) عالم صوفي من مكة مات ببغداد عام ٢٩٧ هـ .

(٢) إسحاق بن محمد عالم صوفي ونهر جور قال ياقوت : بين الأهواز وميسان فيما أحسب . توفي ٣٢٠ هـ .

فصـــل

إذا عرف هذا فنقول : الصواب في قصة آدم وموسى، أن موسى لم يَلُمْ آدم إلا من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل ـ لا لأجل أن تارك الأمر مذنب عاص .

ولهذا قال : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ، لم يقل: لماذا خالفت الأمر ، ولماذا عصيت ، والناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر وشهود الربوبية ، كما قال الله تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إلا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بالله يَهْدِ قَلْبَهُ) [التغابن : ١١]

قال ابن مسعود وغيره : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « احرِصْ على ماينفعك ، واستعن بالله ولاتعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قَدَّرَ اللهُ وما شاء فعل ، فإنَّ لَوْ تفتح عمل

الشيطان[1] » .

فأمره بالحرص على ماينفعه ، وهو طاعة الله ورسوله ، فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله ، وأمره إذا أصابته مصيبة مقدرة أن لاينظر إلى القدر ولايتحسر بتقدير لايفيد، ويقول : قدر الله وماشاء فعل ، ولايقول : لو أني فعلت لكان كذا فيقدِّر مالم يقع يتمنى أن لو كان وقع ، فإن ذلك إنما يورث حسرة وحزنا لايفيد ، والتسليم للقدر هو الذي ينفعه ، كما قال بعضهم الأمر أمران :

أمر فيه حيلة فلاتعجز عنه .
وأمر لاحيلة فيه فلاتجزع منه .

ومازال أئمة الهدى من الشيوخ وغيرهم يوصون الإنسان بأن يفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويصبر على المقدور ، وإن كانت تلك المصيبة بسبب فعل آدمي .

فلو أن رجلاً أنفق ماله في المعاصي حتى مات ولم يخلف لولده مالا ، أو ظلم الناس بظلم ، صاروا لأجله

---

(1) رواه مسلم واحمد وغيرهما ، وقد خرجته في «تخريج السنة» لابن ابي عاصم (٣٥٦) .

يبغضون أولاده ، ويحرمونهم مايعطونه لأمثالهم ، لكان هذا مصيبة في حق الأولاد حصلت بسبب فعل الأب فإذا قال أحدهم لأبيه : أنت فعلت بنا هذا •• قيل للابن : هذا كان مقدوراً عليكم وأنتم مأمورون بالصبر على مايصيبكم . والأب عاص لله فيما فعله من الظلم والتبذير ، ملوم على ذلك لايرتفع عنه ذمّ الله وعقابه بالقدر السابق ، فإن كان الأب قد تاب توبة نصوحاً وتاب الله عليه وغفر له ــ لم يجز ذمه ، ولا لومه بحال لا من جهة حق الله ــ فإن الله قد غفر له ــ ولا من بجهة المصيبة التي حصلت لغيره بفعله ، إذ لم يكن هو ظالما لأولئك فإن تلك كانت مقدرة عليهم •

وهذا مثال قصة آدم ، فإن آدم لم يظلم أولاده ، بل إنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة ، وإنما هبط آدم وحواء ولم يكن معهما ولد حتى يقال : إن ذنبهما تعدى إلى ولدهما، ثم بعد هبوطهما إلى الأرض جاء الأولاد ، فلم يكن آدم قد ظلم أولاده ظلما يستحقون به ملامه ، وكونهم صاروا في الدنيا دون الجنة ، أمر كان مقدراً عليهم لا يستحقون به لوم آدم ، وذنب آدم كان قد تاب منه •

قال الله تعالى (وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ • ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ) [طه : ١٢٢]

وقال : (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كلماتٍ فَتَابَ عليه) [البقرة : ٣٧] .

فلم يبق مستحقا لذم ولا عقاب ، وموسى كان أعلم من أن يلومه لحق الله على ذنب ، قد علم أنه تاب منه ، فسوسى أيضاً قد تاب من ذنب عمله وقد قال موسى : (أَنْتَ ولِيُّنَا فاغْفِرْ لَنَا وارْحَمنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ) [الأعراف : ١٥٥] .

وآدم أعلم من أن يحتج بالقدر . على أن المذنب لا ملام عليه فكيف وقد علم أن إبليس لعنه الله بسبب ذنبه ، وهو أيضاً كان مقدراً عليه ، وآدم قد تاب من الذنب واستغفر .

فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعاً له عند ربه ، لاحتج به ، ولم يتب ويستغفر .

وقد روي في الإسرائيليات أنه احتج به ، وهذا مما لا يصدق به لو كان محتملا . فكيف إذا خالف أصول الإسلام ، بل أصول الشرع والعقل ؟

نعم : إن كان ذكر القدر مع التوبة . فهذا ممكن ،لكن ليس فيما أخبر الله به عن آدم شيء من هذا ، ولا يجوز

الاحتجاج في الدين بالاسرائيليات إلا ما ثبت نقله بكتاب الله أو سنة رسوله فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد قـال :

«إذا حَدَّثَكُم أهل الكتابِ فلا تُصَدِّقُوهُم ولا تُكَذِّبُوهُم»[1] .

وأيضا ، فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعاً فلماذا أخرج من الجنة وأهبط إلى الأرض ؟

فإن قيل : وهو قد تاب ، فلماذا بعد التوبة أُهْبط إلى الأرض ؟

قيل : التوبة بعد التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلى لينظر دوام طاعته . قال تعالى :

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فإن اللهَ غَفُورٌ رَحِيم) [آل عمران: ٨٩]

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٦/٤) من حديث أبي نميلة الأنصاري . وأخرجه (٣٨٧/٣) من حديث جابر نحوه . وله شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري . وهو مخرج في «الصحيحة» (٤٢٢) .

في التائب من الردة .

وقال في كاتم العلم (إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) [البقرة : ١٦٠] .

وقال : أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) [الأنعام : ٥٤]

وقال في القذف : (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) [آل عمران : ٨٩]

وقال : (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً . فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيما ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا) [الفرقان : ٧٠ - ٧١] .

وقال:(وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) [طه : ٦٢] ولما تاب كعب بن مالك

وصاحباه [1] أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين بهجرهم حتى نسائهم ثمانين ليلة •

وقال النبي صلى الله عليه وسلم ـ في الغامدية :

«لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله »[2] •

وقد أخبر الله عن توبته على بني إسرائيل حيث قال لهم موسى ؟ (يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ) [البقرة : ٥٤]

وإذا كان الله تعالى قد يبتلي العبد من الحسنات والسيئات والسراء والضراء بما يحصل معه شكره وصبره، أم كفره وجزعه . وطاعته أم معصيته ، فالتائب أحق بالابتلاء •

---

(١) قصة كعب بن مالك وصاحبه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية في «الصحيحين» .

فآدم أُهبِطَ إلى الأرض ابتلاء له ، ووفقه الله في هبوطه ، لِطاعته فكان حاله بعد الهبوط خيراً من حاله قبل الهبوط ، وهذا بخلاف ما لو كان الاحتجاج بالقدر نافعاً له. فإنه لا يكون عليه ملام البتة ولا هناك توبة تقتضي أن يُبتلى صاحبها ببلاء .

وأيضاً فإن الله قد أخبر في كتابه بعقوبات الكفار مثل قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ، وقوم لوطٍ وأصحاب مدين، وفرعون وقومه ، ما يعرف بكل واحدة من هذه الوقائع أن لا حجة لأحد في القدر .

وأيضا فقد شرع الله من عقوبة المحاربين من الكفار وأهل القبلة وقتل المرتد ، وعقوبة الزاني والسارق ، والشارب ، ما يبين ذلك .

* * *

فصـــل

فقد تبين أن آدم حجَّ موسى لما قصد موسى أن يلوم من كان سبباً في مصيبتهم ، وبهذا جاء الكتاب والسنة ، قال الله تعالى :

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إلاّ بإِذْنِ اللهِ • وَمَنْ يُؤْمِنْ باللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) [التغابن : ١١]

وقال تعالى : (ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ في الأَرْضِ وَلا في أَنْفُسِكُم إلاّ في كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها ، إِنَّ ذَلِكَ عَلى الله يسيرٌ) [الحديد ٢٢]

وسواء في ذلك المصائب السماوية ، والمصائب التي تحصل بأفعال الآدميين ، قال تعالى :

(واصْبِرْ عَلَى مَايقُولُونَ واهْجُرْهم هَجْراً جميلا) [المزمل : ١٠]

وقال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ

قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وأوذُوا حَتَّى أَتَاهُم نَصْرُنَا) [الأنعام : ٣٤] .

وقال في سورة (الطور) بعد قوله : (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فإِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) [الطور : ٢٩ ، ٣١] . إلى قوله : (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّله بَلْ لا يُؤْمِنُونَ) . [الطور : ٣٣] . إلى قوله (أَمْ تَسْأَلُهُم أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ، أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) [الطور : ٤٠ ، ٤١] . (واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فإنَّكَ بأعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) . [الطور : ٤٨] .

وقال تعالى في سورة (ن) : (أَمْ تَسْأَلُهُم أَجْراً فَهُم مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أَمْ عِنْدَهُم الغَيْبُ فَهُم يَكْتُبُون ، فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاتَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نادَى وَهُوَ مَكْظُوم .) [القلم : ٤٦ ، ٤٨] .

وقد قيل في معناه : اصبر لما يحكم به عليك ، وقيل : اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آت ، والأول أصح •

وحكم الله نوعان : خلق وأمر •

فالأول : ما يقدره من المصائب •
والثاني : ما يأمر به وينهى عنه •

والعبد مأمور بالصبر على هذا ، وعلى هذا فعليه أن يصبر لما أمر به ولما نهي عنه ، فيفعل المأمور ، ويترك المحظور ، وعليه أن يصبر لما قدره الله عليه •

وبعض المفسرين يقول : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وهذا يتوجه إذا كان في الآية ، النهي عن القتال ، فيكون هذا النهي منسوخاً ، ليس جميع أنواع الصبر منسوخة ، كيف ، والآية لم تتعرض لذلك هنا ، لا بنفي ولا إثبات ! بل الصبر واجب لحكم الله ، ما زال واجباً وإذا أمر بالجهاد فعليه أيضاً أن يصبر لحكم الله ، فإنه يبتلى من قتالهم بما هو أعظم من كلامهم ، كما ابتلي به يوم أحد والخندق ، وعليه حينئذ أن يصبر ، ويفعل ما أمر به من الجهاد •

والمقصود هنا قوله :

(واصبر لحكم ربك) ، فإن ما فعلوه من الأذى هو مما حكم به عليك قدرا ، فاصبر لحكمه وإن كانوا ظالمين في ذلك ، وهذا الصبر أعظم من الصبر على ما جرى وفعل بالأنبياء ، وقوله :

(فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إذْ نادى وَهُوَ مَكْظُوم)

وقال : (وَذا النُّونِ إذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فِي الظُّلُماتِ) [الأنبياء : ٨٧]

وسواء كان مغاضباً لقومه أو لربه ، فكانت مغاضبته من أمر قدر عليه ، وصبره ، صبر لحكم ربه الذي قدَّره وقضاه . وإن كان إنما تأذّى من تكذيب الناس له .

وقالت الرسل لقومهم : (وَمَا لَنَا أَنْ لاَ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانا سُبُلَنا، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) [ابراهيم ١٢]

وقال موسى لقومه ــ لما قال فرعون : : (سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُم وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُم ، وإنّا فَوْقَهُم قَاهِرُون) [الأعراف : ١٢٧]

ــ : وقال موسى لقومه: (اسْتَعِينُوا باللهِ واصْبِرُوا إنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ والعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [الاعراف : ١٢٨]

وقال :(فاصْبِر إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) [غافر : ٥٥]

وقال تعالى : (والَّذِينَ هَاجَرُوا في اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُم في الدُّنيا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ • الَّذِيْنَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [النحل : ٤١ ــ ٤٢]

فهؤلاء ظُلموا فصبروا على ظلم الظالم لهم ، وسبب نزولها المهاجرون إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهي عامة في كل من اتصف بهذه الصفة •

واصل المهاجر : من هجر ما نهى الله عنه ، كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم[1] • فكل من هجر السوء فظلمه الناس على ترك الكفر والفسوق والعصيان ، حتى أخرجوه إلى هجر بعض أموره في الدنيا فصبر على ظلمهم ، فإن الله يبوئه في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر ، كيوسف الصديق فإنه هجر الفاحشة حتى ألجأه ذلك إلى هجر منزله ، واللبث في السجن بعد ما ظلم فمكنه الله حتى تبوأ من الأرض حيث يشاء ••

وقال الذين لقوا الكفار : (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرَاً) [البقرة : ٢٥٠]

وقال : (إنْ يَكُنْ مِنْكُم عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وإنْ يَكُنْ مِنْكُم مائةٌ يَغْلِبُوا أَلْفَاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ • الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُم وَعَلِمَ أَنَّ

---

(١) روى البخاري عن ابن عمر مرفوعاً : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر مانهى الله عنه » . وقد خرجته في «الروض النضير» (٥٩١)

فِيكُم ضَعْفاً ، فإن يَكُنْ مِنْكُم مائةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ ، وإنْ يَكُنْ مِنْكُم ألْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بإذْنِ اللهِ ، واللهُ مَعَ الصَّابِرِيْنَ) [الأنفال : ٦٥ ، ٦٦]

وقال : (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيْلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بإذن اللهِ . واللهُ مَعَ الصَّابِرِيْنَ) [البقرة : ٢٤٩]

فهذا كله صبر على ما قدر من أفعال الخلق ، والله سبحانه مدح في كتابه الصبار الشكور •

قال تعالى : (إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) [ابراهيم : ٥٥] •

فالصبر والشكر على ما يقدره الرب على عبده من السراء والضراء ، من النعم والمصائب ، من الحسنات التي يبلوه بها والسيئات ، فعليه أن يتلقى المصائب بالصبر ، والنعم بالشكر • ومن النعم ما ييسره له من أفعال الخير ومنها ماهي خارجة عن أفعاله ، فيشهد القدر عند فعله للطاعات ، وعند إنعام الله عليه ، فيشكره ويشهده عند المصائب ، فيصبر ، وأما عند ذنوبه ، فيكون مستغفراً

تائباً كما قال :

(فاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) [غافر : ٥٥]

وأما من عكس هذا فشهد القدر عند ذنوبه ، وشهد فعله عند الحسنات فهو من أعظم المجرمين ، ومن شهد فعله فيهما ، فهو قدري[١] ومن شهد القدر فيه ولم يعترف بالذنب ويستغفره فهو من جنس المشركين .

وأما المؤمن ، فيقول : « أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي »[٢] كما في الحديث الصحيح الإلهي :

(ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إيَّاها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه)[٣] .

(١) القدرية : لقب للمعتزلة لأنهم يذهبون إلى أن الناس هم الذين يقدرون أعمالهم ، وليس لله دخل .

(٢) هو قطعة من حديث أخرجه البخاري من حديث شداد بن أوس .

(٣) هو قطعة من حديث قدسي رواه مسلم (١٧/٨)

وكان نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُتَّبِعاً ما أمر به من الصبر على أذى الخلق . ففي «الصحيحين» عن عائشة قالت : « ما ضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده خادماً له ، ولا دابة ، ولا شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه ،

وأحمد (٥/١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٧) عن أبي ذر ونصه :

قال الله تعالى : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي أنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل انسان مسألته . ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله ، لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله » .

وقال أنس : « خدمت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشر سنين ، فما قال لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته ؟وكان بعض أهله إذا أعتبني على شيء يقول : دعوه ، دعوه ، فلو قضي شيء لكان»[1].

وفي « السنن »[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه ذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قول بعض من آذاه فقال : « دعنا منك فقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر » .

فكان يصبر على أذى الناس له من الكفار والمنافقين

---

(١) الجزء الأول منه مشهور في «الصحيحين» وغيرهما عن أنس وسائره عند أحمد وغيره ، وهو مخرج في «تخريج السنة» (٣٥٢ـ٣٥٥) .

(٢) يعني «سنن الترمذي» أخرجه في «المناقب» (٣٢٢/٢) واستغربه ، وفيه زيد بن زائد ، وهو مجهول ، ومن طريقه أخرجه أحمد أيضا (٣٩٦/١) ، لكن الحديث في «الصحيحين» وغيرهما من طريق أخرى ، عن ابن مسعود بلفظ : «رحم الله موسى قد أوذي ...» .

وأذى بعض المؤمنين كما قال :

(إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ) [الأحزاب : ٥٣]

كان يذكر أن هذا مقدر ، والمؤمن مأمور بأن يصبر على المقدور ، ولذلك قال :

(وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) [آل عمران : ١٢٠] فالتقوى فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على أذاهم . ثم إنه حيث أباح المعاقبة قال :

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) [النحل : ١٢٦ ، ١٢٧]

فأخبر أن صبره بالله . فالله هو الذي يعينه عليه . فإن الصبر على المكاره بترك الانتقام من الظالم ثقيل على الأنفس ، لكن صبره بالله كما أمره أن يكون لله في قوله :

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) [المدثر : ٧]

لكن هنالك ذكره في الجملة الطلبية الأمرية ، لأنه مأمور أن يصبر لله لا لغيره . وهنا ذكره في الخبرية ، فقال : (وما صبرك إلا بالله) فإن الصبر وسائر الحوادث لا تقع إلا بالله ، ثم قد يكون ذلك وقد لا يكون . فما لا يكون بالله لا يكون ، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم . ولا يقال : واصبر بالله فإن الصبر لا يكون إلا بالله لكن يقال : استعينوا بالله واصبروا فنستعين بالله على الصبر .

وكما أن الإنسان مأمور بشهود القدر وتوحيد الربوبية عند المصائب ، فهو مأمور بذلك عندما ينعم الله عليه من فعل الطاعات فيشهد قبل فعلها حاجته وفقره إلى إعانة الله له وتحقق قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) ، ويدعو بالأدعية التي فيها طلب إعانة الله له على فعل الطاعات . كقوله : « أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »[1] . وقوله : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على

---

(١) رواه أبو داود عن معاذ ، وقد خرجته في (تخريج الطحاوية) (٢٦٨) .

دينك[1] ، ويا مصرف القلوب اصرف قلبي إلى طاعتك وطاعة رسولك »[2] .

وقوله : (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ) [آل عمران : ٨]

وقوله : (رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً) [الكهف ١٠]

ومثل قوله : « اللهم ألهمني رشدي ، واكفني شر نفسي » .

ورأس هذه الأدعية وأفضلها قوله (إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

فهذا الدعاء أفضل الأدعية وأوجبها على الخلق ، فإنه يجمع صلاح العبد في الدين والدنيا والآخرة ، وكذلك

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو ، وابن أبي عاصم في «السنة» عن جمع من الصحابة، وقد خرجته في تخريجي إياه برقم (٢٢٢ و ٢٣٠ – ٢٣٣) .

(٢) أخرجه أحمد ومسلم وابن أبي عاصم والآجري عن ابن عمرو دون قوله : «وطاعة رسولك» .

الدعاء بالتوبة ، فإنه يتضمن الدعاء بأن يلهم العبد التوبة ، وكذلك دعاء الاستخارة فإنه طلب تعليم العبد ما لم يعلمه وتيسيره له .

وكذلك الدعاء الذي كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو به إذا قام من الليل، وهو في «الصحيح»[1] :

« اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وكذلك الدعاء الذي فيه :

« اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا »[2] .

---

(١) هو من حديث عائشة في «صحيح مسلم» وأبي عوانة .

(٢) الترمذي عن ابن عمر وقال : حديث حسن غريب، وهو مخرج في «تخريج الكلم الطيب» (٢٢٥) .

وكذلك الدعاء باليقين والعافية كما في حديث أبي بكـــر[1] .

وكذلك قوله :

« اللهم أصلح لي قلبي ونيتي »[2] .

ومثل قول الخليل وإسماعيل :

(رَبَّنَــا واجْعَلْنَــا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِــنْ ذُرِيَّتِـنَا أمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) [البقرة : ١٢٨]

وهذه أدعية كثيرة تتضمن افتقار العبد إلى الله في أن يعطيه الإيمان والعمل الصالح ، فهذا افتقار واستعانة بالله قبل حصول المطلوب . فإذا حصل بدعاء أو بغير دعاء شهد إنعام الله فيه ، وكان في مقام الشكر والعبودية لله ، وأن هذا حصل بفضله وإحسانه لا بحول العبد وقوته .

---

(١) في الترمذي وابن ماجه عن أبي بكر : « سلوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً مــن العافية ، وهو حديث صحيح مخرج في «الإرواء» (٩١٧) .

(٢) لم أره إلا بلفظ « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ،وأصلح لي آخرتي التي فيها معــادي ...» الحديث رواه مسلم وغيره ، وهو مخرج في «الروض النضير» (١١١٢) .

فصل

فشهود القدر في الطاعات من أنفع الأمور للعبد ، وغيبته عن ذلك من أضر الأمور به ، فإنه يكون قدرياً منكراً لنعمة الله عليه بالإيمان والعمل الصالح ، وإن لم يكن قدري الاعتقاد ، كان قدري الحال ، وذلك يورث العجب والكبر ودعوى القوة والمنة بعمله ، واعتقاد استحقاق الجزاء على الله به فيكون من يشهد العبودية مع الذنوب والاعتراف بها ـ لا مع الاحتجاج بالقدر عليها ـ خيراً من هذا الذي يشهد الطاعة منه ـ لا من إحسان الله إليه ، ويكون أولئك المذنبون بما معهم من الايمان ، أفضل من طاعة بدون هذا الايمان .

وأما من أذنب وشهد أن لا ذنب له أصلا ، لكون الله هو الفاعل . وعند الطاعة يشهد أنه الفاعل ، فهذا شر الخلق .

وأما الذي يشهد نفسه فاعلا للأمرين ، والذي يشهد ربه فاعلا للأمرين ، ولا يرى له ذنباً ، فهذا أسوأ عاقبة من القدري . والقدري أسوأ بداية منه . كما هو مبسوط في موضع آخر !

والناس في هذا المقام أربعة أقسام :

— من يغضب لربه •• لا لنفسه ••

— وعكسه ••[1] •

— ومن يغضب لهما ••

— ومن لا يغضب لهما ••

كما أنهم في شهود القدر أربعة أقسام :

— من يشهد الحسنة من فعل الله ، والسيئة من فعل نفسه ••

— وعكسه ••

— ومن يشهد الثنتين من فعل ربه ••

— ومن يشهد الثنتين من فعل نفسه ••

فهذه الأقسام الأربعة في شهود الربوبية نظير تلك

---

(١) أي من يغضب لنفسه لا لربه

الأقسام الأربعة في شهود الإلهية ، فهذا تقسيم العباد فيما لله ولهم ، وذاك تقسيمهم فيما هو بالله وبهم ، والقسم المحض أن يعمل لله بالله ، فلا يعمل لنفسه ولا بنفسه .

والمقصود هنا تقسيمهم فيما لله .

فأعلاهم حال النبي — صلى الله عليه وسلم — ومن اتبعه .

وهو أن يصبروا على أذى الناس لهم . باليد واللسان ، ويجاهدون في سبيل الله ، فيعاقبون ويغضبون وينتقمون لله — لا لنفوسهم — يعاقبون لأن الله يأمر بعقوبة ذلك الشخص ، ويحب الانتقام منه . كما في جهاد الكفار ، وإقامة الحدود ..

وأدناهم عكس هؤلاء يغضبون وينتقمون ويعاقبون لنفوسهم لا لربهم ، فإذا أوذي أحدهم أو خولف هواه غضب وانتقم وعاقب ، ولو انتهكت محارم الله أو ضيعت حقوقه لم يهمه ذلك . وهذا حال الكفار والمنافقين .

وبين هذين وهذين قسمان :

قسم يغضبون لربهم ولنفوسهم ..

وقسم يميلون إلى العفو في حق الله وحقوقهم ..

فموسى في غضبه على قومه لما عبدوا العجل كـان غضبه لله ..

وقد مثل النبي صلى الله عليه وسلم في حقوق الله أبا بكر وعمر بإبراهيم وعيسى ، ونوح وموسى فقال :

« إن الله يُلين قلوب رجال فيه ، حتى تكون أَلْيَنَ من اللبن ، ويشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجر .. ومثلكَ يا أبا بكر كمثل إبراهيم وعيسى ، ومثلك يا عمر كمثل نوح وموسى »[1] .

وأما عفو الإنسان عن حقوقه فهذا أفضل وإن كان الاقتصاص جائزاً ، وكذلك غضبه لنفسه تركه أفضل ، وإن كان الاقتصاص جائزاً .

وأما ما كان من باب المصائب الحاصلة بقدر الله ولم يبق فيها مذنب يعاقب ، فليس فيها إلا الصبر والتسليم للقـدر .

---

(١) أخرجه أحمد (١/٣٨٣) من حديث ابن مسعود . ورجاله ثقات لكنه منقطع .

وقصة آدم وموسى كانت من هذا الباب ، فإن موسى لامَهُ لأجل ما أصابه والذرية ، وآدم كان قد تاب من الذنب وغفر له ، والمصيبة كانت مقدَّرة فحج آدم موسى .

وهكذا قد يصيب الناس مصائب بفعل أقوام مذنبين وتابوا مثل كافر يقتل مسلماً ، ثم يسلم ويتوب الله عليه ، او يكون متأوِّلاً لبدعة ، ثم يتوب من البدعة أو يكون مجتهداً أو مقلداً مخطئاً .. فهؤلاء إذا أصاب العبد أذى بفعلهم فهو من جنس المصائب السماوية التي لا يطلب فيها قصاص من آدمي .

ومن هذا الباب القتال ، في الفتنة قال الزهري[1] : وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون فأجمعوا ، أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هَدْر[2] .

وكذلك قتال البغاة المتأولين حيث أمر الله بقتالهم ،

---

(١) الزهري : محمد بن مسلم من أكابر الحفاظ والفقهاء وأول من دون الحديث قرشي . توفي عام ١٢٤ هـ .

(٢) هدر ـ أي ضائع

إذا ... هم أهل العدل فأصابوا من أهــل العدل نفوساً وأموالا لم تكن مضمونة عند جماهير العلماء كأبي حنيفة ومالك والشافعي في أحد قوليه ، وهــذا ظاهر مذهب أحمــد .

وكذلك المرتدون إذا صار لهم شوكة فقاتلوا المسلمين وأصابوا من دمائهم وأموالهم ، كما اتفق الصحابة في قتال أهل الردة ، أنهم لا يضمنون بعد إسلامهم ما أتلفوه من النفوس والأموال ، فإنهم كانوا متأولين ، وإن كان تأويلهم باطلاً .

كما أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المتواترة عنه ، مضت بــأن الكفار إذا قتلوا بعض المسلمين وأتلفوا أموالهم ثم أسلموا ، لم يضمنوا ما أصابوا من النفوس والأموال ، وأصحاب تلــك النفوس والأموال كانــوا يجاهدون ، قد اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فعوض ما أخذ منهم على الله لا على أولئك الظالمين الذين قاتلهم المؤمنون ، وإذا كان هذا في الدماء والأموال فهو في الأعراض أولى .

فمن كان مجاهداً في سبيل الله باللسان ، بالأمــر

بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبيان الدين ، وتبليغ مافي الكتاب والسنة من الأمر والنهي والخير ، وبيان الأقوال المخالفة لذلك ، والرد على من خالف الكتاب والسنة .

أو باليد كقتال الكفار ، فإذا أوذي على جهاده بيد غيره أو لسانه فأجره في ذلك على الله ، لا يطلب من هذا الظالم عوض مظلمته ، بل هذا الظالم إن تاب وقبل الحق الذي جُوهِدَ عليه ، فالتوبة تَجُبُّ[1] ما قبلها :

(قُلْ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوا إنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ) [الأنفال : ٣٨]

وإن لم يتب ، بل أصر على مخالفة الكتاب والسنة ، فهو مخالف لله ورسوله ، والحق في ذنوبه لله ورسوله ــ وإن كان أيضاً للمؤمنين حق تبعاً لحق الله ــ وهذا إذا عوقب ، عُوقِبَ لِحَقِّ الله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، لا لأجل القصاص فقط .

والكفار إذا اعتدوا على المسلمين . مثل أن يمثّلوا بهم ، فللمسلمين أن يمثلوا بهم كما مثلوا والصبر أفضل ،

(١) تجب ما قبلها : أي تكفر ما وقع من الذنوب قبلها .

وإذا مثلوا كان ذلك من تمام الجهاد .

والدعاء على جنس الظالمين الكفار مشروع مأمور به . وشرع القنوت والدعاء للمؤمنين ، والدعاء على الكافرين .

وأما الدعاء على معينين كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يلعن فلاناً وفلاناً (1) فهذا قد روي انه منسوخ بقوله : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ) [آل عمران : ١٢٨] كما بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع فيما كتبت في قلعة مصر .

وذلك لأن المعين لا يعلم أن رضى الله منه أن يهلكه . بل قد يكون ممن يتوب الله عليه .

بخلاف الجنس (2) ، فإنه إذا دعا عليهم بما فيه عِزُّ الدين ، وذلُّ عدوه وقمعهم ، كان هذا دعاء بما يحبه

---

(١) في الترمذي عن ابن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم أُحُد : اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن صفوان بن أمية . وأحاديث اخرى . . .

(٢) قلت : هذا التفريق بين المعين والجنس ، غير بين ولا ظاهر ، وذلك لأن الجنس أيضاً لا يعلم أن رضاء الله

الله ويرضاه ، فإن الله يحب الإيمان وأهل الإيمان وعلو أهل

منه أن يهلكه ، بل قد يكون ممن يتوب الله عليه ، كما وقع للثلاثة الذين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر بعد الركوع : اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً ، وهم : صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، وفيهم نزلت الآية المذكورة « ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » كما في «صحيح البخاري» ـ كتاب المغازي ـ من حديث عبد الله ابن عمر . فان هؤلاء الثلاثة قد كانوا أسلموا يوم الفتح ، كما جزم به الحافظ في «الفتح» (٧/٢٨١) وقال :

ولعل هذا هو السر في نزول قوله تعالى (ليس لك من الامر شيء) .

قلت : ومما يؤيده زيادة أحمد (٢/٩٣) من طريق أخرى في هذا الحديث بلفظ :

قال : « فتيب عليهم كلهم » .

ورجاله ثقات ، لولا أن عمر بن حمزة قد تكلموا فيه، مع أنه من رجال مسلم !

ولعدم ظهور الفرق الذي ادعاه المؤلف رحمه الله تعالى جرى الصحابة رضي الله عنهم على جواز لعن الفرد المعين تأديباً له وزجرا ، إذا علم أنه أهل لذلك ، وأقرهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فقد روى البخاري في «الادب المفرد» (رقم ١٢٤) وغيره بسند جيد عن أبي هريرة قال : « قال رجل : يا رسول الله إن لي جارا يؤذيني ،

الإيمان ، وذل الكفار ، فهذا دعاء بما يحب الله .

فقال : انطلق فأخرج متاعك الى الطريق . فانطلق فأخرج متاعه ، فاجتمع الناس عليه . فقالوا : ما شأنك ؟ قال : لي جار يؤذيني ، فذكرت للنبي صلى اللهعليهوسلم فقال : انطلق فاخرج متاعك الى الطريق . فجعلوا يقولون : اللهم العنه ، اللهم أخزه . فبلغه ، فأتاه ، فقال : ارجع الى منزلك ، فوالله لا أوذيك » .

وفي رواية له من حديث أبي جحيفة :

« احمل متاعك فضعه على الطريق ، فمن مر به يلعنه . . . » .

وأخرجه الطبراني أيضاً في«مكارم الأخلاق»(١/١٧٠/٢) والبزار ، وحسن إسناده الحافظ المنذري في «الترغيب» (٢٣٥/٣) ، والطبراني أيضاً من حديث ابن عباس ، فهو حديث صحيح .

واستمر الصحابة على ذلك الى ما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخرج الامام أحمد (٢٦١/٤) عن عمارة ابن رويبة أنه رأى بشر بن مروان على المنبر رافعاً يديه يشير باصبعيه يدعو ، فقال : لعن الله هاتين اليدين ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يدعو ، وهو يشير باصبع .

قلت : وإسناده صحيح على شرط مسلم ، وقد أخرجه في «صحيحه» (١٣/٣) بنحوه .

وروى أحمد أيضاً (٢٧١/٢) عن أيوب قال : لا ادري

وأما الدعاء على المعين بما لا يعلم أن الله يرضاه ، فغير مأمور به ، وقد كان يفعل ثم نهي عنه ، لأن الله قد يتوب عليه ، أو يعذبه ، ودعاء نوح على أهل الأرض بالهلاك كان بعد أن أعلمه الله : (أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) [هود : ٣٦] ومع هذا فقد ثبت في حديث الشفاعة في « الصحيح »[1] أنه يقول :

« إني دَعَوْتُ على أَهْلِ الأرض دعوة لم أؤمَرْ بها » .

فإنه وإن لم ينه عنها فلم يؤمر بها ، فكان الأولى أنه لا يدعو إلا بدعاء مأمور به واجب أو مستحب ، فان

أسمعته من سعيد بن جبير أم بنته عنه قال :

أتيت على ابن عباس . . وقال : لعن الله فلانا ، عمدوا الى أعظم أيام الحج فمحوا زينته ، وإنما زينة الحج التلبية .

قلت : وإسناده صحيح إن كان سمعه من سعيد وبالجملة ، فلعن المعين تأديباً له ، وزجرا لغيره ان يفعل فعله ، مما لا دليل على المنع منه ، بل فيما ذكرنا ما يدل على جوازه ، ولدينا مزيد لولا ضيق المجال .

(١) حديث الشفاعة الطويل المشهور في «الصحيحين» عن أبي هريرة ، ومعنى كلام نوح انه كانت في دعوة دعاها على قومه اي استنفذ دعوته من قبل .

الدعاء من العبادات ، فلا يعبد الله إلا بمأمور به ، واجب ، أو مستحب .

وهذا لو كان مأموراً به لكان شرعاً لنوح ، ثم ننظر في شرعنا هل نسخه أم لا ..

وكذلك دعاء موسى بقوله :

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِم واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِم فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) [يونس : ٨٨]

إذا كان دعاء مأمورا به بقي النظر في موافقة شرعنا له .

والقاعدة الكلية في شرعنا :

أن الدعاء إن كان واجبا أو مستحباً فهو حسن يثاب عليه الداعي .

وإن كان محرماً كالعدوان في الدعاء فهو ذنب ومعصية .

وإن كان مكروهاً فهو ينقص مرتبة صاحبه .

وإن كان مباحاً مستوي الطرفين ، فلا له ولا عليه ، فهذا هذا والله سبحانه أعلم[1] .

فصل

وكلا الطائفتين الذين يسلكون إلى الله محض الإرادة ، والمحبة والدنو والقرب منه من غير اعتبار بالأمر والنهي المنزلين من عند الله ، والذين ينتهون إلى الفناء في توحيد الربوبية ، يقولون بالجمع والاصطلام في توحيد الربوبية ، ولا يصلون إلى الفرق الثاني ، ويقولون : إن صاحب الفناء لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ويجعلون هذا غاية السلوك .

والذين يفرقون بين ما يستحسنونه ويستقبحونه ،

---

(١) قلت : وهذه القاعدة ، مهمة جداً ، ولكنها لاتتناول لعن المعين . إلا على أنه مستحب أو مباح على الأقل للأحاديث المتقدمة . وليس في الشرع ما يدل على أنه منسوخ ، وما المح إليه المصنف من النسخ إنما هو في اشخاص معينين ، وذلك لانهم قدموا تائبين كما سبق . فتامل .

ويحبونه ويكرهونه ، ويأمرون به وينهون عنه ، لكن بإرادتهم ومحبتهم وهواهم ، لا بالكتاب المنزل من عند الله .

كلا الطائفتين متبع لهواه بغير هدى من الله .

وكلا الطائفتين لم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً رسول الله ، فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي أن لا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله ، ولا يوالي إلا لله ، ولا يعادي إلا لله ، وأن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله ، ويأمر بما أمر الله به ، وينهى عما نهى الله عنه ، وأنك لا ترجو إلا الله ، ولا تخاف إلا الله ، ولا تسأل إلا الله ، وهذا ملة إبراهيم ، وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين .

والفناء في هذا هو الفناء المأمور به ـ الذي جاءت به الرسل ـ وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ، وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه ، فيكون مع الحق بلا خلق كما قال الشيخ عبد القادر :

« كنْ معَ الحقِّ بلا خَلْقٍ ، ومَعَ الخَلْقِ

بِلا نَفْسٍ » .

وتحقيق الشهـادة بأن محمداً رسول الله يوجب أن تكون طاعته طاعـة الله وإرضاؤه إرضاء الله ، ودين الله ما أمر الله به ، فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، ولهذا طالب الله المدعين لمحبته بمتابعته فقال : (قُلْ إن كُنْتُمْ تُحِبُّون الله فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ) [آل عمران : ٣١]

وضمن لمن اتبعه أن الله يحبه بقوله (يحببكم الله) ، وصاحب هذه المتابعة لا يبقى مريداً إلا لما أحبه الله ورسوله، ولا كارهاً إلا لما كرهه الله ورسوله ، وهذا هو الذي يحبه الحق كمـا قـال :

« ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيـذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن [قبض] نفس [عبدي]

المؤمن يكره الموت ، وأكره مساءته [ولا بد له منه] »[1] .

فهذا محبوب الحق ومن اتبع الرسول فهو محبوب الحق ، وهو المتقرب إلى الله بما دعا إليه الرسول من فرض وفعل .

ومعلوم أن من كان هكذا فهو يحب طاعة الله ورسوله ، ويبغض معصية الله ورسوله ، فإن الفرائض والنوافل كلها من العبادات التي يحبها الله ورسوله ليس فيها كفر و لافسوق ، والرب تعالى أحبه لما قام بمحبوب الحق فإن الجزاء من جنس العمل .

فلما لم يزل متقربا إلى الحق بما يحبه من النوافل بعد الفرائض ، أحبه الحق ، فإنه استفرغ وسعه في محبوب الحق ، فصار الحق يحبه المحبة التامة التي لا يصل إليها من هو دونه في التقرب إلى الحق بمحبوباته ، حتى صار

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً عن الله تعالى ، وهو حديث قدسي صحيح ، كما حققته في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (١٦٤٠) وراجع له « تخريج شرح الطحاوية » (ص ٥٠٠) .

يعلم بالحق ويعمل بالحق فصار به يسمع ، وبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشي .

وأما الذي لا يستحسن حسنة ، ولا يستقبح سيئة ، فهذا لم تبق عنده الأمور نوعين : محبوب للحق ومكروه له ، بل كل مخلوق فهو عنده محبوب للحق كما أنه مراد ، فإن هؤلاء أصل قولهم هو قول جهم بن صفوان[1] من القدرية ، فهم من غلاة الجهمية الجبرية في القدر ، وإن كانوا في الصفات يكفرون الجهمية نفاة الصفات ، كحال أبي إسماعيل الانصاري صاحب « منازل السائرين » ، و « ذم الكلام » ، و « الفاروق » ، و « تكفير الجهمية » وغير ذلك ، فإنه في باب إثبات الصفات في غاية المقابلة[2] للجهمية والنفاة ، وفي باب الأفعال والقدر قوله يوافق الجهم ومن اتبعه من غلاة الجبرية . وهو قول الاشعري وأتباعه ، وكثير من الفقهاء أتباع الأئمة الأربعة ، ومن أهل الحديث والصوفية فإن هؤلاء أقروا بالقدر موافقة للسلف

---

(١) جهم بن صفوان من الجبرية الخالصة من سمرقند قتل به بمرو عام ١٢٨ هـ .
(٢) المقابلة : المضادة وعدم الموافقة .

وجمهور الأئمة وهم مصيبون في ذلك ، وخالفوا القدرية من المعتزلة وغيرهم في نفي القدر •

ولكن سلكوا في ذلك مسلك الجهم بن صفوان وأتباعه ، فزعموا أن الأمور كلها لم تصدر إلا عن إرادة تخصيص أحد المتماثلين بلا سبب •

وقالوا : الإرادة والمحبة والرضا ، سواء فوافقوا في ذلك القدرية •

فإن الجهمية والمعتزلة كلاهما يقول : إن القادر المختار يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح •

وكلاهما يقول : لا فرق بين الإرادة والمحبة والرضى •

ثم قالت القدرية : وقد عُلم بالكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف ، أن الله يحب الإيمان ، والعمل الصالح ، ولا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، بل يكره الكفر والفسوق والعصيان •

قالوا : فيلزم من ذلك أن يكون كل مافي الوجود من المعاصي واقعاً بدون مشيئته وإرادته ، كما هو واقع على خلاف أمره ، وخلاف محبته ، ورضاه •

وقالوا : إن محبته ورضاه لأعمال عباده ، هو بمعنى أمره بها فكذلك إرادته لها بمعنى أمره بها ، فلا يكون قط عندهم مريداً لغير ما أمر به • وأخذ هؤلاء يتأولون مافي القرآن من إرادته لكل ما يحدث ، ومن خلقه لأفعال العباد ، بتأويلات محرفة •

وقالت الجهمية ومن اتبعها من الأشعرية وأمثالهم : « قد علم بالكتاب والسنة والإجماع أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ولا يكون خالقا إلا بقدرته ومشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وكل مافي الوجود فهو بمشيئته وقدرته ، وهو خالقه سواء في ذلك أفعال العباد وغيرها » •

ثم قالوا :

« وإذا كان مريداً لكل حادث والإرادة هي المحبة والرضى ، فهو محب راضٍ بكل حادث »[1] •

وقالوا :

---

(١) وفي نسخة الفتاوي « لكل حادث »

« كل مافي الوجود من كفر وفسوق وعصيان ، فإن الله راض به ومحب له كما هو مريد له » •

فقيل لهم : فقد قال تعالى :

(لا يحب الفساد) ، (ولا يرضى لعباده الكفر) •

فقالوا :

« هذا بمنزلة أن يقال : لا يريد الفساد ، ولا يريد لعباده الكفر » ــ وهذا يصح على وجهين :

الوجه الاول :

إما أن يكون خاصا بمن لم يقع منه الكفر والفساد ؛ ولا ريب أن الله لا يريد ولا يحب ما لم يقع عندهم، فقالوا: معناه لا يحب الفساد لعباده المؤمنين ولا يرضاه لهم •

وحقيقة قولهم : إن الله لا يحب الإيمان ولا يرضاه من الكفار ، فالمحبة والرضى عندهم ، كالإرادة عندهم متعلقة بما وقع دون ما لم يقع ، سواء كان مأموراً به أو منهياً عنه ، وسواء كان من أسباب سعادة العباد أو شقاوتهم •

وعندهم : أن الله يحب ما وجد من الكفر والفسوق والعصيان ، ولا يحب ما لم يوجد من الإيمان والطاعة نما أراد هذا دون هذا .

والوجه الثاني :

قالوا : لا يحب الفساد دينا ، ولا يرضاه دينا ، وحقيقة هذا القول :

أنه لا يريده دينا ، فإنه إذا أراد وقوع الشيء على صفة لم يكن مريداً له على خلاف تلك الصفة ، وهو إذا أراد وقوع شيء مع شيء لم يرد وقوعه وحده.فإنه إذاأرادأن يخلق زيداً من عمرو لم يرد أن يخلقه من غيره ، وإذا أراد أن ينزل مطراً فتنبت الأرض به فإنه أراد إنزاله على تلك الصفة ، وإذا أراد أن يركب البحر قوم ، فيغرق بعضهم ، ويسلم بعضهم ، ويربح بعضهم ، فإنما أراده على تلك الصفة .

فكذلك الإيمان والكفر ، قرن بالإيمان نعيم أصحابه، وبالكفر عذاب أصحابه ، وإن لم يكن عندهم جعل شيء لشيء سبباً ، ولا خلق شيئاً لحكمة ، لكن جعل هـذا مع هذا .

وعندهم جعل السعادة مع الإيمان لا به ، كما يقولون : إنه خالق الشبع عند الأكل لا به ، فالدين الذي أمر به هو ما قرن به سعادة صاحبه في الاخرة ، والكفر والفسوق والعصيان عندهم أحبه ورضيه كما أراده ، لكن لم يحبه مع سعادة صاحبه فلم يحبه دينا ، كما أنه لم يرده مع سعادة صاحبه فلم يرده دينا .

وهذا المشهد الذي شهده أهل الفناء في توحيد الربوبية ، فإنهم رأوا الرب تعالى خلق كل شيء بإرادته، وعلم أن سيكون ما أراد ، ولا سبب عندهم لشيء ولا حكمة ، بل كل الحوادث تحدث بالارادة .

الارادة من نفات الصفات

ثم الجهم بن صفوان ، ونفاة الصفات من المعتزلة ونحوهم ، لا يثبتون إرادة قائمة بذاته ، بل إما أن ينفوها ، وإما أن يجعلوها بمعنى الخلق والأمر ، وإما أن يقولوا : أحدث إرادة لا في محل .

وأما مثبتة الصفات كابن كلاب[1] والأشعري

(١) بالضم وتشديد اللام واسمه عبد الله بن سعيد

وغيرهما ممن يثبت الصفات ولا يثبت إلا واحدا معيناً ، فــلا يثبت إلا إرادة واحدة تتعلق بكل حــادث ، وسمعاً واحدا معينا متعلقا بكل مسموع ، وبصراً واحداً معينــاً متعلقاً بكل مرئي ، وكلاماً واحداً بالعين يجمع جميع أنواع الكلام كما عرف من مذهب هؤلاء .

فهؤلاء يقولون : جميع الحادثات صادرة عن تلك الإرادة الواحدة ، العين المفردة التي ترجح أحد المتماثلين لا بمرجح ، وهي المحبة والرضى وغير ذلك .

وهؤلاء إذا شهدوا هذا لم يبق عندهم فرق بين جميع الحوادث في الحسن والقبح ، إلا من حيث موافقتها للانسان ومخالفة بعضها له ، فما وافق مراده ومحبوبه ،

المصري المتكلم في أيام المأمون ، وهو رأس الكلابية ، وكان ابن خزيمة يعيب مذهبهم ، ويذكر عن أحمد بن حنبل أنه كان من أشد الناس على عبد الله بن سعيد ، لا تعرف سنة وفاته ، لكن قال الذهبي : كان بعد الاربعين ومائتين .

والأشعري: هو أبو الحسن علي بن اسماعيل ينتهي نسبه الى أبي موسى الأشعري الصحابي، كان قائماً بنصرة مذهب السنة توفي سنة نيف وثلاثين وثلثمائة هـ

كان حسناً عنده ، وما خالف ذلك كان قبيحاً عنده ، فلا يكون في نفس الأمر حسنة يحبها الله ، ولا سيئة يكرهها ، إلا بمعنى أن الحسنة هي ما قرن بها لذة صاحبها ، والسيئة ما قرن بها ألم صاحبها من غير فرق يعود إليه ولا إلى الأفعال أصلا .

ولهذا كان هؤلاء لا يثبتون حسناً ولا قبيحاً إلا بمعنى الملائم للطبع ، والمنافي له ،

والحسن والقبح الشرعي : هو ما دل صاحبه على أنه قد يُحدث لمن فعله لذة ، أو حصول ألم له ، وهذا لا يجوز عندهم ، أن يأمر الله بكل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان ، وينهى عن كل شيء حتى عن الإيمان والتوحيد ، ويجوز نسخ كل ما أمر به ، بكل ما نهى عنه ، ولم يبق عندهم في الوجود خير ولا شر ، ولا حسن ولا قبيح إلا بهذا الاعتبار ، فما في الوجود ضر ولا نفع ، والنفع والضر أمران إضافيان ، فربما نفع هذا ما ضر هذا كما يقال :

مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَومٍ فَوَائِدُ [1] .

---

(١) شطر بيت للمتنبي من قصيدته التي يمدح بها سيف الدولة ومطلعها :

عواذل ذات الخال في حواسد
وإن ضجيع الخود مني لماجد

فلما كـان هـذا حقيقة قولهم الـذي يعتقدونـه ويشهدونه ، صاروا حزبين :

١ ــ حزبٌ من أهل الكلام والرأي أقرّوا بالفرق الطبيعي وقالوا : ما ثم فرق إلا الفرق الطبيعي ، ليس هنا فرق يرجع إلى الله بأنه يحب هذا ويبغض هذا .

ثم منهم من يضعف عنده الوعد والوعيد ، إما لقوله بالإرجاء ، وإما لظنه أن ذلك لمصالح الناس في الدنيا إقامة للعدل ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة ، فلا يبقى عنده فرق بين فعل وفعل ، إلا ما يحبه هو ويبغضه ، فما أحبه هو كان الحسن الذي ينبغي فعله ، وما أبغضه كان القبيح الذي ينبغي تركه .

وهذا حال كثير من أهل الكلام والرأي الذين يرون رأي جهم والأشعري ونحوهما في القدر ، نجدهم لا ينتهون في المحبة والبغضة والموالاة والمعاداة إلا إلى محض أهوائهم وإرادتهم ، وهو الفرق الطبيعي .

ومن كان منهم مؤمناً بالوعد ، فإنه قد يفعل الواجبات،

ويترك المحرمات ، لكن لأجل ما قرن بهما من الأمور الطبيعية في الآخرة ، من أكل وشرب ونكاح .

وهؤلاء ينكرون محبة الله والتلذذ بالنظر إليه ، وعندهم إذا قيل : إن العباد يتلذذون بالنظر إليه فمعناه أنهم عند النظر يخلق لهم من اللذات بالمخلوقات ما يتلذذون به ، لا أن نفس النظر إلى الله يوجب اللذة .

وقد ذكر هذا غير واحد ، منهم أبو المعالي في الرسالة «النظامية» ، وجعل هذا من أسرار التوحيد ، وهو من إشراك التوحيد الذي يسميه هؤلاء النفاة توحيداً ، لا من أسرار التوحيد الذي بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، فإن المحبة لا تكون إلا لمعنى في المحبوب يحبه المحب ، وليس عندهم في الموجودات شيء يحبه الرب إلا بمعنى يريده ، وهو مريد لكل الحوادث ، ولا في الرب عندهم معنى يحبه العبد ، وإنما يحب العبد ما يشتهيه ، وإنما يشتهي الأمور الطبيعية الموافقة لطبعه ، ولا يوافق طبعه عندهم إلا اللذات البدنية ، كالأكل ، والشرب ، والنكاح .

٢ ـ والحزب الثاني من الصوفية الذي كان هذا المشهد هو منتهى سلوكهم ، عرفوا الفرق الطبيعي ، وهم

قد سلكوا على ترك هذا الفرق الطبيعي ، وأنهم يزهدون في حظوظ النفس وأهوائها لا يريدون شيئا لأنفسهم .

وعندهم أن من طلب شيئاً للأكل والشرب في الجنة ، فإنما طلب هواه وحظه ، وهذا كله نقص عندهم ينافي حقيقة الفناء في توحيد الربوبية ، وهو بقاء مع النفس وحظوظها ، والمقامات كلها عندهم : التوكل والمحبة ، وغير ذلك إنما هي منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة ، فإذا شهدوا توحيد الربوبية كان ذلك عندهم عللا في الحقيقة ، إما لنقص المعرفة والشهود ، وإما لأنه ذب عن النفس وطلب حظوظها ، فإنه من شهد أن كل ما في الوجود فالرب يحبه ويرضاه ويريده ، لا فرق عنده بين شيء وشيء ، إلا أن من الأمور ما معه حظ لبعض الناس من لذة يصيبها ، ومنها ما معه ألم لبعض الناس ممن كان هذا مشهده ، فإنه قطعاً يرى أن كل من فرق بين شيء وشيء لم يفرق إلا لنقص معرفته وشهوده أن الله رب كل شيء ، ومريد لكل شيء ومحب على قولهم لكل شيء .

وإما لفرق يرجع إلى حظه وهواه ، فيكون طالباً لحظه ، وذاباً عن نفسه ، وهذا علة وعيب عندهم ، فصار

عندهم كل من فرق : إما ناقص المعرفة والشهادة ، وإما ناقص القصد والإرادة ، وكلاهما علة ، بخلاف صاحب الفناء في مشهد الربوبية ، فإنه يشهد كل مافي الوجود بإرادته ومحبته ورضاه عندهم لا فرق بين شيء وشيء ، فلا يستحسن حسنة ، ولا يستقبح سيئة ، كما قال صاحب « منازل السائرين » .

ولهذا في الكلام المنقول عن الدبيلي وأبي يزيد أنه قال :

« إذا رأيت أهل الجنة يتنعمون في الجنة ، وأهل النار يتعذبون في النار ، فوقع في قلبك فرق ، خرجت عن حقيقة التوكل ، أو قال : عن التوحيد الذي هو أصل التوكل . ومعلوم أن هذا الفرق لا يعدم من الحيوان دائماً ، بل لا بد له منه ، يميل إلى ما لا بد منه من أكل وشرب ، لكنه في حال الفناء قد يكون مستغرقاً في هذا المشهد ، ولكن لا بد أن يميل إلى أمور يحتاج إليها فيريدها ، وأمور تضره فيكرهها ، وهذا فرق طبيعي لا يخلو منه بشر ، لكن قد يقولون بالفرق في الامور الضرورية التي لا يقوم الإنسان إلا بها ، من طعام ولباس ونحو ذلك — فيكتفون في الدنيا والآخرة مما لابد منه من طعام

ولباس ، يرون هذا الزهد هو الغاية فيزهدون في كل شيء بمعنى أنهم لا يريدونه ، ولا يكرهونه ولا يحبونه ولا يبغضونه ، ويكون زهدهم في المساجد كزهدهم في الحانات .

ولهذا إذا قدم الشيخ الكبير منهم بلداً يبدأ بالبغايا في الحانات ويقول : كيف أنتم في قدر الله ، فإنه لا فرق عنده في هذا المشهد بين المساجد والكنائس والحانات ، وبين أهل الصلاة والإحرام وقراءة القرآن ، وأهل الكفر وقطاع الطرق والمشركين بالرحمن .

ولا ريب أن فناءهم وغيبتهم عن شهود الإلهية والنبوة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وما تضمنه من الفرق يرجع إلى نقص العلم والشهود والإيمان والتوحيد ، فشهدوا نعتاً من نعوت الرب ، وغابوا عن آخر وهذا نقص .

وقد يرون أن شهود الذات مجردة عن الصفات أكمل ، ويقولون بشهود الأفعال ثم شهود الصفات ، ثم شهود الذات المجردة .

وربما جعلوا الأول للنفس ، والثاني للقلب ، والثالث

للروح ، ويجعلون هـذا النقص مـن إيمانهم ومعرفتهم وشهودهم هو الغاية ، فيكونون مضاهين للجهمية نفاة الصفات حيث أثبتوا ذاتاً مجردة عن الصفات ، وقالوا : هذا هو الكمال لكن أولئك يقولون بانتفائها في الخارج ، فيقولون : إنهم يشهدون أنها منتفية ، وهؤلاء يثبتونها في الخارج علماً أو اعتقاداً ، ولكن يقولون : الكمال في أن يغيب عن شهودها ولا يشهدون نفيها ، لكن لا يشهدون ثبوتها ، وهذا نقص عظيم وجهل عظيم .

أما أولاً ، فلأنهم شهدوا الأمر على خـلاف ماهو عليه فذات مجردة عن الصفات لا حقيقة لها في الخارج .

وأما الثاني ، فهو مطلوب الشيطان من التجهم ونفـي الصفات ، فإن عدم العلم والشهود لثبوتها يوافق فيـه الجهمي المعتقد لانتفائها .

ومن قال : أعتقد أن محمداً ليس برسول ، وقال الآخر : وإن كنت أعلم رسالته ، فأنا أفنى عنها فلا أذكرها ولا أشهدها ، فهذا كافر كالأول ، فالكفر عدم تصديق الرسول سواء كان معه اعتقاد تكذيب أم لا ، بل وعدم الإقرار بما جاء به والمحبة ، فمن ألزم قلبه أن يغيب عن

معرفة صفات الله ، كما يعرف ذاته ، وألزم قلبه أن يشهد ذاتاً مجردة عن الصفات ، فقد ألزم قلبه أن لا يحصل له مقصود الإيمان بالصفات ، وهذا من أعظم الضلال .

وأهل الفناء في توحيد الربوبية ، قد يظن أحدهم أنه إذا لم يشهد إلا فعل الرب فيه فلا إثم عليه ، وهم في ذلك بمنزلة من أكل السموم القاتلة وقال : أنا أشهد أن الله هو الذي أطعمني فلا يضرني . وهذا جهل عظيم ، فإن الذنوب والسيئات تضر الإنسان أعظم مما تضره السموم ، وشهوده أن الله فاعل ذلك لا يدفع ضررها ، ولو كان هذا دافعا لضررها ، لكان أنبياء الله وأولياؤه المتقون أقدر على هذا الشهود الذي يدفعون به عن أنفسهم ضرر الذنوب .

ومن هؤلاء من يظن أن الحق إذا وهبه حالاً يتصرف به ، وكشفاً لم يحاسبه على تصرفه به ، وهذا بمنزلة من يظن أنه إذا أعطاه ملكاً لم يحاسبه على تصرفه فيه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »(1)

---

(1) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة ، وهو من

فبين أنه مع أنه المعطي المانع فلا ينفع المجدود جَدُّه ، إنما ينفعه الإيمان والعمل الصالح .

فهذا أصل عظيم ضل بالخطأ فيه خلق كثير ، حتى آل الأمر بكثير من هؤلاء إلى أن جعلوا أولياء الله المتقين يقاتلون أنبياءه ويعاونون أعداءه ، وأنهم مأمورون بذلك ، وهو أمر شيطاني قدري .

ولهذا يقول من يقول منهم : إن الكفار لهم خفراء من أولياء الله ، كما للمسلمين خفراء من أولياء الله ، ويظن كثير منهم أن أهل الصفة قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم في بعض المغازي ، فقال : يا أصحابي تخلوني وتذهبون عني ؟ فقالوا : نحن مع الله من كان مع الله كنا معه .

ويجوزون قتال الأنبياء ، وقتلهم ، كما قال شيخ مشهور منهم كان بالشام : لو قتلت سبعين نبياً ما كنت مخطئاً ، فإنه ليس في مشهدهم لله محبوب مرضي مراد

جملة ماكان يقوله صلى الله عليه وسلم في دبر كل صلاة ، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقوله أيضاً بعدمايرفع رأسه من الركوع ـ أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد وابن عباس .

إلا ما يقع ، فما وقع فالله يحبه ويرضاه ، وما لم يقع فالله لا يحبه ولا يرضاه ، والواقع هو تبع القدر لمشيئة الله وقدرته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فهم من غلب كانوا معه ، لأن من غلب كان القدر معه ، والمقدور عندهم هو محبوب الحق ، فإذا غلب الكفار كانوا معهم ، وإذا غلب المسلمون كانوا معهم ، وإذا كان الرسول منصوراً كانوا معه ، وإذا غلب أصحابه كانوا مع الكفار الذين غلبوهم ، وهؤلاء الذين يصلون إلى هذا الحد غالبهم لا يعرف وعيد الآخرة ، فإن من أقر بوعيد الآخرة وأنه للكفار لم يمكنه أن يكون معاوناً للكفار ، موالياً لهم على ما يوجب وعيد الآخرة .

لكن قد يقولون بسقوطه مطلقاً ، وقد يقولون بسقوطه عمن شهد توحيد الربوبية ، وكان في هذه الحقيقة القدرية ، وهذا يقوله طائفة من شيوخهم كالشيخ المذكور وغيره .

فلهذا يوجد هؤلاء الذين يشهدون القدر المحض ، وليس عندهم غيره ، إلا ما هو قدر أيضا من نعيم أهل الطاعة وعقوبة أهل المعصية ، لا يأمرون بالمعروف ولا

ينهون عن المنكر ، ولا يجاهدون في سبيل الله ، بل ولا يدعون الله بنصر المؤمنين على الكفار ، بل إذا رأى أحدهم من يدعو ، قال الفقير أو المحقق أو العارف : ماله ؟ يفعل الله ما يشاء ، وينصر من يريد ، فإن عنده أن الجميع واحد بالنسبة إلى الله وبالنسبة إليه أيضاً فانه ليس له غرض في نصر إحدى الطائفتين ، لا من جهة ربه ، فإنه لا فرق على رأيه عند الله تعالى بينهما ، ولا من جهة نفسه ، فإن حظوظه لا تنقص باستيلاء الكفار بل كثير منهم تكون حظوظه الدنيوية مع استيلاء الكفار والمنافقين والظالمين أعظم ، فيكون هواه أعظم ، وعامة من معهم من الخفراء هم من هذا الضرب ، فإن لهم حظوظاً ينالونها باستيلائهم لا تحصل لهم باستيلاء المؤمنين ، وشياطينهم تحب تلك الحظوظ المذمومة وتغريهم بطلبها ، وتخاطبهم الشياطين بأمر ونهي وكشف يظنونه من جهة الله ، وأن الله هو أمرهم ونهاهم ، وأنه حصل لهم من المكاشفة ما حصل لأولياء الله المتقين ، ويكون ذلك كله من الشياطين ، وهم لا يفرقون بين الأحوال الشيطانية الرحمانية والشيطانية ، لأن الفرق مبني على شهود الفرق من جهة الرب تعالى .

وعندهم لا فرق بين الامور الحادثة كلها من جهة الله تعالى ، إنما هو مشيئة محضة تناولت الأشياء تناولا واحداً ، فلا يحب شيئاً ولا يبغض شيئاً ، ولهذا يشترك هؤلاء في جنس السماع الذي يثير مافي النفوس من الحب والوجد والذوق ، فيثير من قلب كل أحد حبه وهواه ، وأهواؤهم متفرقة فإنهم لم يجتمعوا على محبة ما يحبه الله ورسوله ، إذ كان محبوب الحق على أصل قولهم هو ما قدره فوقع ، وإذا اختلفت أهواؤهم في الوجد اختلفت أهواء شياطينهم ، فقد يقتل بعضهم بعضاً بشياطينه ، لأنها أقوى من شياطين ذاك وقد يسلبه ما معه من الحال الذي هو التصرف والمكاشفة الحاصلة له بسبب شياطينهم ، فتكون شياطينه هربت من شياطين ذاك ، فيضعف أمره ، ويسلب حاله ، كمن كان ملكاً له أعوان ، فأخذت أعوانه ، فيبقى ذليلا لا ملك له .

فكثير من هؤلاء كالملوك الظلمة الذين يعادي بعضهم بعضا ، إما مقتول وإما مأسور وإما مهزوم ، فإن منهم من يأسر غيره فيبقى تحت تصرفه ، ومنهم من يسلبه غيره ، فيبقى لا حال له كالملك المهزوم .

فهذا كله من تفريع أصل الجهمية الغلاة في الجبر في القدر ، وإنما يخلص من هذا كله من أثبت لله محبة لبعض الامور وبغضاً لبعضها ، وغضباً من بعضها • وكما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب ، وهذا هو الذي يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويعلم أن التوحيد الذي بعثت به الرسل : أن يعبد الله وحده لا شريك له ، فيعبد الله دونما سواه ، وعبادته تجمع كمال محبته ، وكمال الذل له ، كما قال الله تعالى :

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُم وَأَسْلِمُوا لَهُ) [الزمر : ٥٤] •

فينيب قلبه إلى الله ، ويسلم له ، ويتبع ملة ابراهيم حنيفاً• (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيْنَاً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ ، واتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيْمَ حَنِيْفَاً،واتَّخَذَ اللهُ إبْرَاهِيْمَ خَلِيْلا) [النساء:١٥٢] ويعلم أن ما أمر الله ورسوله به ، فان الله يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه فانه يبغضه وينهى عنه ، ويمقت عليه ، ويسخط على فاعله ، فصار يشهد الفرق من جهة الحق تعالى ، ويعلم أن الله تعالى يحب أن يعبد وحده لا شريك

له ، ويبغض من يجعل له أنداداً يحبونهم كحب الله • وإن كانوا مقرين بتوحيد الربوبية ، كمشركي العرب وغيرهم •

وإن هؤلاء القدرية الجبرية الجهمية أهل الفناء في توحيد الربوبية حقيقة قولهم من جنس قول المشركين الذين قالوا : (لَوْ شَاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ) قال الله تعالى : (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ، وَإنْ أَنْتُمْ إلاَّ تَخْرُصُونَ • قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُم أَجْمَعِين) [الأنعام : ١٤٨ ، ١٤٩]

فإن هؤلاء المدركين لما أنكروا ما بعثت به الرسل من الأمر والنهي ، وأنكروا التوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهم يقرون بتوحيد الربوبية ، وأن الله خالق كل شيء ، ما بقي عندهم من فرق من جهة الله بين مأمور ومحظور •

فقالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء) وهذا حق ، فإن الله لو شاء أن لا يكون هذا لم يكن لكن أي فائدة لهم في هذا ، هذا غاينه أن هذا الشرك والتحريم بقدر ، ولا يلزم إذا كان مقدوراً أن يكون محبوباً مرضيا لله ، ولا علم عندهم بأن الله أمر به ، ولا أحبه ، ولا رضيه ، بل ليسوا في ذلك إلا على ظن وخرص .

فإن احتجوا بالقدر ، فالقدر عام لا يختص بحالهم ، وإن قالوا : نحن نحب هذا ونسخط هذا ، فنحن نفرق الفرق الطبيعي لانتفاء الفرق من جهة الحق تعالى ، قيل لهم : لا علم عندكم بانتفاء الفرق من جهة الله تعالى .

والجهمية المثبتة للشرع تقول : بأن الفرق الثابت ، هو أن التوحيد قرن به النعيم ، والشرك قرن به العذاب ، وهو الفرق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو عندهم يرجع إلى علم الله بما سيكون وإخباره .

بل هؤلاء لا يرجع الفرق عندهم إلى محبة منه لهذا ، وبغض لهذا ، وهؤلاء يوافقون المشركين في بعض قولهم لا في كله ، كما أن القدرية من الأمة الذين هم

مجوس الأمة يوافقون المجوس المحضة في بعض قولهم لا في كله ، وإلا فالرسول قد دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى محبة الله دون مـا سواه ، وإلى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما[1] . والمحبة تتبع الحقيقة . فإن لم يكن المحبوب في نفسه مستحقاً أن يحب لم يجز الأمر بمحبته فضلا عن أن يكون أحب إلينا من كل ما سواه .



(١) الحديث « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان في قلبه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .. الخ . » متفق عليه عن انس .

حقيقة المحبة

وإذا قيل : محبته محبة عبادته وطاعته ، قيل : محبة العبادة والطاعة فرع على محبة المعبود المطاع ، وكل من لم يحب في نفسه لم تحب عبادته وطاعته •

ولهذا كان الناس يبغضون طاعة الشخص الـذي يبغضونه ، ولا يمكنهم مع بغضه محبة طاعته إلا لغرض آخر محبوب مثل عوض يعطيهم على طاعته فيكون المحبوب في الحقيقة هو ذلك العوض ، فلا يكون الله ورسوله أحبّ إليهم مما سواهما إلا بمعنى أن العوض الذي يحصل من المخلوقات أحب إليهم من كل شيء ، ومحبة ذلـك العوض مشروط بالشعور به فما لا يشعر به تمتنع محبته •

وإذا قيل : هم قد وعدوا على محبة الله ورسوله بأن يعطوا أفضل محبوباتهم المخلوقة •

قيل : لا معنى لمحبة الله ورسوله عندكم إلا محبة ذلك العوض ، والعوض غير مشعور به حتى يحب •

وإذا قيل : بل إذا قال من قال : لا يحب غيره إلا لذاته ، المعنى أنك إذا أطعتني أعطيتك أعظم ما تحبه ، صار محباً لذلك الآمر له .

قيل : ليس الأمر كذلك ، بل يكون قلبه فارغاً من محبة ذلك الآمر ، وإنما هو معلق بما وعده من العوض على عمله ، كالفعلة الذين يعملون في البناء والخياطة والنساجة وغير ذلك ما يطلبون به أجورهم ، فهم قد لا يعرفون صاحب العمل أو لا يحبونه ، ولا لهم غرض فيه ، إنما غرضهم في العوض الذي يحبونه .

وهذا أصل قول الجهمية القدرية ، والمعتزلة الذين ينكرون محبة الله تعالى ، ولهذا قالت المعتزلة ومن اتبعها من الشيعة : إن معرفة الله وجدت لكونها لطفاً في أداء الواجبات العقلية ، فجعلوا أعظم المعارف تبعاً لما ظنوه واجباً بالعقل ، وهم ينكرون محبة الله والنظر إليه فضلا عن لذة النظر .

وابن عقيل[1] لما كان في كثير من كلامه طائفة من

---

(1) علي بن عقيل شيخ الحنابلة في بغداد في وقته ، كان فيه انحراف عن السنة ، وتشيع للحلاج ، ثم تبرأ من ذلك ، وأشهد عليه جماعة من العلماء توفي عام ٥١٣ هـ

كلام المعتزلة ، سمع رجلا يقول : « اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك » فقال : يا هذا ، هب أن له وجهاً أفتتلذذ بالنظر إليه •

وهذا اللفظ مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في الحديث الذي رواه النسائي وغيره عن عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال في الدعاء : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين »[1] •

وقد روي هذا اللفظ من وجه آخر عن النبي صلى

---

(١) قلت : وصححه الحاكم ووافقه الذهبي «صفة الصلاة» .

الله عليه وسلم ، أظنه من رواية زيد بن ثابت[1] ، ومعناه في «الصحيح»[2] من حديث صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا دخل أهل الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ماهو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ويخرجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » وهي الزيادة يعني قوله : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) [يونس : ٢٦]

فقد أخبر أنه ليس فيما أعطوه من النعيم أحب إليهم من النظر إليه ، وإذا كان النظر إليه أحب الأشياء إليهم ، علم أنه نفسه أحب الأشياء إليهم ، وإلا لم يكن النظر أحب أنواع النعيم إليهم ، فإن محبة الرؤية تتبع محبة المرئي ،

---

(١) قلت : هو كما ظن رحمه الله ، وقد أخرجه أحمد (١٩١/٥) وفيه أبو بكر وهو ابن أبي مريم وهو ضعيف .

(٢) يعني «صحيح مسلم» وقد خرجته في التعليق على «السنة» لابن أبي عاصم (٤٧٢) .

وما لا يحب ولا يبغض في نفسه لا تكون رؤيته أحب إلى الانسان من جميع أنواع النعيم .

وفي الجملة فإنكار الرؤية والمحبة والكلام أيضاً معروف من كلام الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم . والأشعرية ومن تابعهم ، يوافقونهم على نفي المحبة ويخالفونهم في إثبات الرؤية ، ولكن الرؤية التي يثبتونها لا حقيقة لها .

وأول من عرف عنه في الإسلام أنه أنكر أن الله يتكلم ، وأن الله يحب عباده هو الجعد بن درهم[1] ولهذا أنكر أن يكون اتخذ الله إبراهيم خليلا ، أو كلم موسى تكليما فضحى به خالد بن عبد الله القسري[2] وقال : « ضحوا أيها الناس تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا . ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيرا » ، ثم نزل فذبحه .

(١) الجعد بن درهم مبتدع اتهم بالزندقة قتله خالد القسري بالعراق عام ١١٨ هـ بأمر من هشام بن عبد الملك .
(٢) كان أمير العراقين أيام هشام بن عبد الملك . ولي من قبل مكة وهو من خطباء العرب المشهورين .

وأما الصوفية فهم يثبتون المحبة بل هذا أظهر عندهم من جميع الامور ، وأصل طريقتهم إنما هي الإرادة والمحبة وإثبات محبة الله مشهور في كلام أوليهم وآخريهم كما هو ثابت بالكتاب والسنة وباتفاق السلف .

والمحبة جنس تحته أنواع كثيرة ، وكل عابد محب لمعبود ، فالمشركون يحبون آلهتهم كما قال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، والَّذِيْنَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ) [البقرة : ١٦٥]

وفيه قولان :

أحدهما : يحبونهم كحب المؤمنين لله .

والثاني : يحبونهم كما يحبون الله .

لأنه قد قال : (والَّذِيْنَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهَ) .

فلم يمكن أن يقال : إن المشركين يعبدون آلهتهم كما يعبد الموحدون الله ، بل كما يحبون هم الله ، فإنهم يعدلون آلهتهم برب العالمين كما قال : (ثُمَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) [الأنعام : ١] وقال :

(تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ) [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨]

وقد قال بعض من نصر القول الأول في الجواب عن حجة القول الثاني : قال المفسرون ، قوله : (والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ) ، أي : أشد حبا لله من المشركين لآلهتهم ، فيقال له : ما قاله هؤلاء المفسرون ، مناقض لقولك ، فإنك تقول : إنهم يحبون الأنداد كحب المؤمنين لله ، وهذا يناقض أن يكون المؤمنون أشد حباً لله من المشركين لأربابهم فتبين ضعف هذا القول ، وثبت أن المؤمنين يحبون الله أكثر من محبة المشركين لله ولآلهتهم ، لأن أولئك أشركوا في المحبة ، والمؤمنون أخلصوها كلها لله .

وأيضاً فقوله : (كَحُبِّ الله) أضيف فيه المصدر إلى المحبوب المفعول ، وحذف فاعل الحب ، فإما أن يراد كما يحب الله من غير تعيين فاعل فيبقى عاماً ، في حق الطائفتين ، وهذا يناقض قوله : (والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ) وإما أن يراد ــ كحبهم لله ــ ولا يجوز أن يراد « كما يحب غيرهم الله » إذ ليس في الكلام ما يدل على هذا بخلاف حبهم فإنه قد دل عليه قوله : (وَمِنَ

النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ) [البقرة : ١٦٥] فأضاف الحب المشبه إليهم ، فكذلك الحب المشبه لهم .

إذ كان سياق الكلام ، يدل عليه إذا قال : يحب زيداً كحب عمر ، أو يحب علياً كحب أبي بكر ، أو يحب الصالحين من غير أهله كحب الصالحين من أهله ، أو قيل : يحب الباطل كحب الحق أو يحب سماع المكاء والتصدية[1] كحب سماع القرآن وأمثال ذلك لم يكن المفهوم إلا أنه هو المحب للمشبه والمشبه به ، وأنه يحب هذا كما يحب هذا ، لا يفهم منه أنه يحب هذا كما يحب غيره ، إذ ليس في الكلام ما يدل على محبة غيره أصلا .

والمقصود أن المحبة تكون لما يتخذ إلهاً من دون الله ، وقد قال تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ) [الجاثية : ٢٣] فمن كان يعبد ما يهواه ، فقد اتخذ إلهه هواه ، فما هويه

(١) المكاء والتصدية : والتصفير والتصفيق وقد ورد في القرآن : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) [الأنفال : ٣٥] .

إلهه ، فهو لا يتأله من يعلم أن يستحق التأله ، بل يتأله ما يهواه . وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لآلهتهم ، ومحبة عباد العجل له ، وهذه محبة مع الله لا محبة لله . وهذه محبة أهل الشرك ، والنفوس قد تدعي محبة الله ، وتكون في نفس الأمر محبة شرك ، تحب ما تهواه وقد أشركته في الحب مع الله ، وقد يخفى الهوى على النفس « حبك الشيء يعمي ويصم »[1] .

وهكذا الأعمال التي يظن الإنسان أنه يعملها لله وفي نفسه شرك قد خفي عليه ، وهو يعمله ، إما لحب رياسة ، وإما لحب مال ، وإما لحب صورة ، ولهذا قالوا : يا رسول الله : الرجل يقاتل شجاعة وحمية ورياء ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[2] .

فلما صار كثير من الصوفية النساك المتأخرين يدعون

(١) حديث ضعيف كما بينته في «الضعيفة» (١٨٦٨) ، ولعله لذلك لم يعزه المصنف إلى النبي صلى الله عليه وسلم .
(٢) الحديث متفق عليه عن ابي هريرة

المحبة ، ولم يزنوها بميزان العلم ، والكتاب والسنة ، دخل فيها نوع من الشرك واتباع الأهواء ، والله تعالى قد جعل محبته موجبة لاتباع رسوله فقال :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) [آل عمران : ٣١]

وهذا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يدعو إلى ما يحبه الله ، وليس شيء يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه ، وليس شيء يدعو إليه الرسول ، إلا والله يحبه . فصار محبوب الرب ، ومدعو الرسول متلازمين ، بل هذا هو هذا في ذاته ، وإن تنوعت الصفات ، فكل من ادعى أنه يحب الله ، ولم يتبع الرسول فقد كذب ، ليست محبته لله وحده ، بل إن كان يحبه ، فهي محبة شرك . فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود والنصارى محبة الله ، فانهم لو أخلصوا له المحبة ، لم يحبوا إلا ما أحب فكانوا يتبعون الرسول .

فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه ، كانت محبتهم من جنس محبة المشركين ، وهكذا أهل البدع ، فمن قال : إنه من المريدين لله المحبين له ، وهو لا يقصد

اتباع الرسول والعمل بما أمر به ، وترك ما نهى عنه ، فمحبته فيها شوب[1] من محبة المشركين واليهود والنصارى بحسب ما فيه من البدعة ، فإن البدع ليست مشروعة ، وليست مما دعا إليه الرسول ، ولا يحبها الله ، فان الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله ، فأمر بكل معروف ، ونهى عن كل منكر .

وأيضاً فمن تمام محبة الله ورسوله بغض من حاد الله ورسوله والجهاد في سبيله لقوله تعالى :

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) [المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالى أيضاً :

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ

---

(١) الشوب بفتح الشين وسكون الواو هو الخلط .

سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ باللهِ والنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [المائدة : ٨٠ ، ٨١]

وقال تعالى :

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبْرَاهيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَآؤا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُون اللهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَداً ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ) [الممتحنة : ٤]

فأمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم ومن معه حيث أبدوا العداوة والبغضاء لمن أشرك حتى يؤمنوا بالله وحده ، فأين هذا من حال من لا يستحسن حسنة ، ولا يستقبح سيئة . وهؤلاء سلكوا طريق الإرادة والمحبة ، مجملا من غير اعتصام بالكتاب والسنة ، كما سلك أهل الكلام والرأي طريق النظر والبحث من غير اعتصام بالكتاب والسنة ، فوقع هؤلاء في ضلالات ، وهؤلاء في ضلالات كما قال تعالى :

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى • وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً • وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى • قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً • قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسى) [طه : ١٢٣ ، ١٢٦]

وقال :(وَأَنَّ هَذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [الأنعام : ١٥٣]

وقال : (إِنَّ هَذا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [الإسراء : ٩]

وقال : (قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهتَدى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) [يونس : ١٠٨]

ومثل هذا كثير في القرآن ، وقد بسط الكلام على

هذا الأصل في غير هذا الموضع .

فإن قيل : صاحب الفناء في توحيد الربوبية قد شهد أن الرب خلق كل شيء وقد يكون ممن يثبت الحكمة فيقول : إنما خلق المخلوقات لحكمة وهو يحب تلك الحكمة ويرضاها وإنما خلق ما يكرهه لما يحبه ، والذين فرقوا بين المحبة والإرادة قالوا : المريض يريد الدواء ولا يحبه ، وإنما يحب ما يحصل به وهو العافية وزوال المرض . فالرب تعالى خلق الأشياء كلها بمشيئته ، فهو مريد لكل ما خلق. ولما أحبه من الحكمة وإن كان لا يحب بعض المخلوقات من الأعيان والأفعال ، لكنه يحب الحكمة التي خلق لأجلها .

فالعارف إذا شهد هذا أحب أيضاً أن يخلق لتلك الحكمة ، وتكون الأشياء مرادة محبوبة له كما هي للحق ، فهو وإن كره الكفر والفسوق والعصيان ، لكن ما خلقه الله منه خلقه لحكمة وإرادة ، فهو مراد محبوب باعتبار غايته لا باعتباره في نفسه .

قيل : من شهد هذا المشهد فهو يستحسن ما حسنه الله وأحبه ورضيه ، ويستقبح ما كرهه الله وسخطه ، ولكن إذا كان الله خلق هذا المكروه لحكمة يحبها فالعارف هو

أيضاً يكرهه ويبغضه ، كما كرهه الله ، ولكن يحب الحكمة التي خلق لأجلها فيكون حبه وعلمه موافقاً لعلم الله لا مخالفاً والله عليمٌ حكيم •

فهو يعلم الأشياء على ما هي عليه وهو حكيم فيما يحبه ويريده ويتكلم به وما يأمر به ويفعله، فإن كان يعلم أن الفعل الفلاني ، والشيء الفلاني متصف بما هو مذموم لأجله ، مستحق للبغض والكراهة كان من حكمته أن يبغضه ويكرهه ، ، وإذا كان يعلم أن في وجوده حصول حكمة محبوبة محمودة ، كان من حكمته أنه يخلقه ويريده لأجل تلك الحكمة المحبوبة التي هي وسيلة إلى حصوله •

وإذا قيل : إن هذا الوسط يحب باعتبار أنه وسيلة إلى محبوب لذاته ويبغض باعتبار ما اتصف به من الصفات المذمومة ، كان هذا حسناً ، كما تقول : إن الإنسان قد يبغض الدواء من وجه ويحبه من وجه ، وكذلك أمور كثيرة تحب من وجه وتبغض من وجه •

وأيضاً يجب الفرق بين أن يكون مضراً بالشخص ، مكروهاً له بكل اعتبار ، وبين أن يكون الله خلقه لحكمة في ذلك ، وإذا كان الله خلق كل شيء لحكمة له في ذلك فإذا

شهد العبد أن له حكمة ورأى هذا مع الجمع الذي يشترك فيه المخلوقات فلا يمنعه ذلك أن يشهد ما بينهما من الفرق الذي فرق الله به بين أهل الجنة وأهل النار ، بل لا بد من شهود هذا الفرق في ذلك الجمع وهذا الشهود مطابق لعلم الله وحكمته والله أعلم .

وقد قال الله تعالى :

«قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وأبْنَاؤُكُمْ وإخْوَانُكُمْ وَأزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِه فَتَرَبَّصُوا حَتى يأتِيَ اللهُ بأمرِهِ واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِينَ» . [التوبة : ٢٤] .

فأخبر أن من كانت محبوباته أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله فهو من أهل الوعيد ، وقال في الذين يحبهم ويحبونه :

« فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ

لَوْمَةَ لائِمٍ » • [المائدة : ٥٤] •

فلا بد لمحب الله من متابعة الرسول والمجاهدة في سبيل الله ، بل هذا لازم لكل مؤمن ، قال تعالى :

« إنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذينَ آمَنُوا باللهِ و رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في سَبيلِ الله أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقونَ » • [الحجرات: ١٥] •

فهذا حب المؤمن لله •

وأما المحبة الشركية فليس فيها متابعة للرسول ولا بغض لعدوه ومجاهدة له، كمايوجد في اليهود والنصارى والمشركين ، يدعون محبة الله ، ولا يتابعون الرسول ، ولا يجاهدون عدوه •

وكذلك أهل البدع المدعون للمحبة لهم من الإعراض عن اتباع الرسول بحسب بدعتهم • وهذا من حبهم لغير الله وتجدهم من أبعد الناس عن موالاة أولياء الرسول ،ومعاداة أعدائه والجهاد في سبيله ، لما فيهم من البدع التي هي شعبة من الشرك ، والذين ادعوا المحبة من الصوفية ، وكان قولهم في القدر من جنس قول الجهمية المجبرة ، هم في آخر الأمر

لا يشهدون للرب محبوباً إلا ما وقع وقدر ، وكل ما وقع من كفر وفسوق وعصيان فهو محبوبه عندهم ، فلا يبقى في هذا الشهود فرق بين موسى وفرعون ولا بين محمد وأبي جهل ، ولا بين أولياء الله وأعدائه ، ولا بين عبادة الله وحده وعبادة الأوثان ، بل هذا كله عند الفاني في توحيد الربوبية سواء ، ولا يفرق بين حادث وحادث إلا من جهة مايهواه ويحبه وهذا هو الذي اتخذ إلهه هواه ، إنما يؤله ويحب ما يهواه ، وهو وإن كان عنده محبة الله فقد اتخذ من دون الله أندادا يحبهم كحب الله ، وهم من يهواه هذا مادام فيه محبة الله ، وقد ينسلخ منها حتى يصير إلى التعطيل ، كفرعون وأمثاله ، الذي هو أسوأ حالا من مشركي العرب ونحوهم •

ولهذا ، هؤلاء يحبون بلا علم ، ويبغضون بلا علم ، والعلم ما جاء به الرسول ، كما قال :

« فَمَنْ حَاجَّكَ فيهِ مِنْ بعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ » • [آل عمران : ٦١] وهو الشرع المنزل •

ولهذا كان الشيوخ العارفون كثيراً ما يوصون المريدين باتباع العلم والشرع ، كما قد ذكرنا قطعة من كلامهم في غير هذا الموضع ، لأن الإرادة والمحبة ، إذا كانت بغير علم

وشرع ، كانت من جنس محبة الكفار وإرادتهم •

فهؤلاء السالكون المريدون، الصوفية والفقراءالزاهدون العابدون الذين سلكوا طريق المحبة والإرادة إن لم يتبعوا الشرع المنزل والعلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيحبون ما أحبه الله ورسوله ، ويبغضون ما أبغض الله ورسوله ، وإلا أفضى بهم الأمر إلى شعب من شعب الكفر والنفاق •

ولا يتم الإيمان والمحبة لله إلا بتصديق الرسول فيما أخبر وطاعته فيما أمر • ومن الإيمان بما أخبر الإيمان بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ، فمن نفى الصفات فقد كذب خبره •

ومن الإيمان بما أمر فعل ما أمر وترك ما حظر ومحبة الحسنات وبغض السيئات ، ولزوم هذا الفرق إلى الممات •

فمن لم يستحسن الحسن المأمور به ولميستقبح السيء المنهي عنه • لم يكن معه من الإيمان شيء ، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع

فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان [1]» .

وكما قال في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي ، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ،ويفعلون ما لا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبهفهو مؤمن.. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » رواه مسلم .

فأضعف الإيمان الانكار بالقلب . فمن لم يكن في قلبه بغض المنكر الذي يبغضه الله ورسوله ، لم يكن معه من الإيمان شيء ..

ولهذا يوجد المبتدعون الذين يدعون المحبة المجملة المشتركة ، التي تضاهي محبة المشركين ، يكرهون من ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم ، ويقولون : فلان ينكر ، وفلان ينكر ..

---

(١) مسلم عن ابي سعيد الخدري

وقد يبتلون كثيراً بمن ينكر ما معهم من حق وباطل ؛ فيصير هذا يشبه النصراني الذي يصدق بالحق والباطل ، ويحب الحق والباطل،كالمشرك الذي يحب الله ويحب الأنداد، وهـذا كاليهودي الـذي يكذب بالحق والباطل ، ويبغض الحق والباطل فلا يحب الله ولا يحب الأنداد ، بل يستكبر عن عبادة الله ، كما استكبر فرعون وأمثاله ، وهذا موجود كثيراً في أهل البدع من أهل الإرادة والبدع من أهل الكلام هؤلاء يقرون بالحق والباطل ، مضاهاة للنصارى ، وهؤلاء يكذبون بالحق والباطـل ، مضاهاة لليهود ، وإنما ديـن الإسلام وطريق أهل القرآن والإيمان ، إنكار ما يبغضه الله ورسوله ، ومحبة ما يحبه الله ورسوله ، والتصديق بالحـق والتكذيب بالباطل ، فهم في تصديقهم ومحبتهم معتدلون يصدقون الحق،ويكذبون بالباطل،ويحبون الحق، ويبغضون الباطل ويصدقون بالحق الموجود، ويكذبون بالباطل المفقود، ويحبون الحق الذي يحبه الله ورسوله وهو المعروف الذي أمر الله ورسوله به ، ويبغضـون المنكر الـذي نهـى الله ورسوله عنه .

وهذا هو الصراط المستقيم،صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، لا طريـق المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق فلا يصدقون به ، ولا

يحبونه ، ولا الضالين الذين يعتقدون ويحبون ما لم ينزل الله به سلطانا .

والمقصود هنا ، أن المحبة الشركية البدعية ، هي التي أوقعت هؤلاء في أن آل أمرهم إلى أن لا يستحسنوا حسنة ، ولا يستقبحوا سيئة ، لظنهم أن الله لا يحب مأموراً ، ولا يبغض محظوراً ، فصاروا في هذا من جنس من أنكر أن الله يحب شيئاً ، ويبغض شيئاً، كما هو قول الجهمية نفاةالصفات، وهؤلاء قد يكون ــ أحدهم مثبتا لمحبة الله ورضاه ، وفي أصل اعتقاده إثبات الصفات ، لكن إذا جاء به إلى القدر لم يثبت شيئاً غير الإرادة الشاملة ، وهذا وقع فيه طوائف من مثبتة الصفات ، تكلموا في القدر بما يوافق رأي جهم والأشعرية فصاروا مناقضين لما أثبتوه من الصفات ، كحال صاحب « منازل السائرين » وغيره .

وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء ، مثل الجنيد بن محمد ، وأتباعه ، ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله ، فهؤلاء منأعظم الناس لزوماً للأمر والنهي،وتوصية باتباع ذلك وتحذيرا من المشي مع القدر كما مشى أصحابهم أولئك ، وهذا هو الفرق الثاني الذي تكلم فيه الجنيد مع أصحابه ، والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على اتباع

المأمور وترك المحظور ، والصبر على المقدور ، ولا يثبت طريقا تخالف ذلك أصلا ، لا هو ولا عامة المشايخ المقبولين عند المسلمين ، ويحذر عن ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي، كما أصاب أولئك الصوفية الذين شهدوا القدر وتوحيد الربوبية ، وغابوا عن الفرق الإلهي الديني الشرعي المحمدي الذي يفرق بين محبوب الحق ومكروهه ، ويثبت أنه لا إله إلا هو ، وهذا من أعظم ما تجب رعايته على أهل الإرادة والسلوك ، فإن كثيراً من المتأخرين من زاغ عنهفضل سواء السبيل ، وإنما يعرف هذا من توجه بقلبه وانكشفت له حقائق الأمور ، وصار يشهد الربوبية العامة والقيومية الشاملة ، فإن لم يكن منه نور الإيمان والقرآن الذي يحصل به الفرقان • حتى يشهد الإلهية التي تميز بين أهل التوحيد والشرك ، وبين ما يحبه الله ، وبين ما يبغضه وبين ما أمر به الرسول وبين ما نهى عنه ، وإلاخرج عن دين الإسلام بحسب خروجه عن هذا ، فإن الربوبية العامة قد أقر بها المشركون الذين قال فيهم : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ » • [يوسف : ١٠٦] •

وإنما يصير الرجل مسلماً حنيفاً موحداً ، إذا شهد أن لا إله إلا الله ، فعبد الله وحده ، بحيث لا يشرك معه أحداً في

تألهه ومحبته له ، وعبوديته وإنابته إليه ، وإسلامه له ، ودعائه له وتوكله عليه ، وموالاته فيه، ومعاداته فيه، ومحبته ما يحب ، وبغضه ما يبغض ، ويفنى بحق التوحيد عن باطل الشرك ، وهذا فناء يقارنه البقاء ، فيفنى عن تأله ما سوى الله بتأله الله تحقيقاً لقوله : لا إله إلا الله فينفي ويفنى من قلبه تأله ما سواه ، ويثبت ويبقى في قلبه تأله الله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح :

« من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » .
وفي الحديث الآخر : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة [1] » .

وقال في الصحيح : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله »[2] فإنها حقيقة الإسلام فمن مات عليها مات مسلماً .

والله تعالى أمرنا أن لا نموت إلا على الإسلام في غير موضع كقوله تعالى :

---

(١) رواه أبو داود والحاكم وغيرهما عن معاذ ، وهو مخرج في «المشكاة» (١٦٢١) ، «وأحكام الجنائز» (ص٣٤) و«إرواء للغليل» رقم (٦٧٩) .
(٢) أخرجه مسلم وغيره . فانظر «أحكام الجنائز» (ص ١٠) و «الإرواء» (٦٧٩) و «الصحيحة» (٢١٥١) .

« يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » • [آل عمران : ١٠٢] •

وقال إبراهيم ويعقوب : « يا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » [البقرة : ١٣٢] •

وقال الصديق : « تَوَفَّني مُسْلِماً وَأَلْحِقْني بِالصَّالِحينَ » • [يوسف : ١٠١] •

والصحيح من القولين : أنه لم يسأله الموت ولم يتمنه ، وإنما سأل أنه إذا مات يموت على الإسلام ، فسأل الصفة لا الموصوف كما أمر اللهبذلك،وأمر بهخليله إبراهيم واسرائيل، وهكذا قال غير واحد من العلماء منهم ابن عقيل وغيره ••• والله أعلم بالصواب •

* * *